14 me Année No. 268

Lundi—29—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٨٢ « القاهرة فى يوم الإثنين أول رمضان سنة ١٣٦٥ — ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

النقد عنـــد العرب

وأسباب ضعفهم فيه

— ٢ —

فأنت ترى أن الموازنة التى قام بها الآمدى إنما كانت بين أبيات مفردة اختارها من مطالع أبى تمام فى الوقوف على الديار ونحوه (١)، واختار ما يقابلها من مطالع البحترى، ثم علق على هذه الأبيات تعليقاً موجزاً لا يتصل بموضوع القصيدة ولا وحدتها ولا غرضها ولا سياقها، كأنها لم تكن عضواً فى جسم ولا جزءاً من كل؛ ولذلك تفرغ من الكتاب وأنت لا تدرى أى الشاعرين أفضل. وهذا النحو الذى نحاه الآمدى فى الموازنة والحكم هو الغالب على رجال الأدب فى تلك العهود. فكثيراً ما تجدهم يقولون: فلان أوصف الشعراء للقوس، أو أنعتهم للخيل، أو أمدحهم للناس، لأنه قال بيتاً واحداً فى وصف قوس أو نعت فرس أو مدح ملك.

ولم أقف على موازنة بين قطعتين كبيرتين من قصيدتين إلا فى كتاب (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين نصر بن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٧ فقد وازن بين قصيدتين فى وصف الأسد للبحترى والمتنبى، وبين قصيدتين فى الرثاء لأبى تمام والمتنبى، وإن لم تكن الموازنة تامة من كل وجه ...

(١) ذلك فى الجزء المطبوع وقد علمنا أن للكتاب بقية قيمة لم تطبع

ومن الظواهر التى تسترعى نظر الباحث أن اللغويين والبيانيين قد أغفلوا نقد المنثور إلا ما اتصل بالقرآن الكريم والحديث الشريف. وقد ظهر أثر هذا الإغفال واضحاً فى كتاب نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر فإنه بكتب البيان والبديع أشبه. ولعله لو وجد ما يحتذيه فى هذا الباب من كلام الأدباء لما بان عجزه ووضح قصوره. وما ذكره ابن الأثير فى كتاب المثل السائر إنما دار على الرسائل المسجوعة دون غيرها من أنواع النثر.

فما سبب قصور العرب عن النقد البيانى، وما علة هذا النقص الذى استتبع نقصاً مثله فى تاريخ الأدب؟

سبب ذلك أن أسبق الأدباء إلى النقد هم اللغويون والنحاة. كانوا هم قضاة الشعر فى أواخر القرن الثانى وفى القرن الثالث، إليهم يحتكم الشعراء، وعنهم يأخذ الملوك والأمراء، حتى قال الخليل بن أحمد: « إنما أنتم معشر الشعراء تبع لى، وأنا سُكان السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم ». وغرض هؤلاء اللغويين والنحاة من النظر فى الشعر إنما كان جمع الشواهد على غريب الألفاظ وصحة القواعد، وتسجيل معانى الشعر ومَن ابتكرها ومن سرقها. فكلما كانت القصيدة أحفل بالشواهد وأجمع للغريب كانت أجود، وكلما كانت المعانى أرسخ فى القدم وأصل فى الابتكار كانت أفضل. ومن ذلك كان أغلب النظر مقصوراً على الأبيات المفردة الشاهدة على صحة الكلمة، أو سلامة القاعدة، دون نظر إلى علاقتها بالقصيدة. وكان الرأى مجمعاً على تقديم الشعر الغريب على المأنوس، وتفضيل الشاعر القديم على

المحدَث . وقد أغرقوا فى إيثار الجاهلى على الإسلامى من غير ميزة إلا الأقدمية ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً » . وكان شعراء القرن الثانى ينكرون ولا بد على أقطاب اللغة والأدب هذا التحكم ويسألونهم الإنصاف ، فقد روى صاحب الأغانى أن حماداً الأرقط قال : « لقينا ابن مناذر بمكة ، فأنشدنى قصيدته : كل حى لاقى الحِمام فَـوِد ... ثم قال لى : اقرأ أبا عبيدة السلام وقل له : يقول لك ابن مناذر : اتق الله واحكم بين شعرى وشعر عدى بن زيد ، ولا تقل ذلك جاهلى وهذا إسلامى ، وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين العصرين ، ولكن احكم بين الشعرين ، ودع العصبية » !

وأخذ هذا الإنكار ينتشر ويشتد كلما ورفت ظلال الحضارة فصقلت الألسنَ وأرهفت الأذواق ، حتى هب جماعة من بلغاء الكتاب فى أوائل القرن الثالث ينقضون أحكام اللغويين والنحاة ويبنون الأحكام الأدبية على قواعد أقرب إلى التسوية والموضوعية ؛ فقد قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ، ومحمد بن الزيات » . وقال أيضاً : « رأيت أناساً يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا فى رواية غير بصير بجوهر ما روى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفى أى زمان كان » . وقال عبد القاهر فى دلائل الإعجاز : « روى أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر سأل البحترى عن مسلم وأبى نواس أيهما أشعر ؟ فقال أبو نواس . فقال : إن أبا العباس ثعلباً لا يوافق على هذا فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من دُفع فى سلك طريق الشعر ومضايقه وانتهى إلى ضروراته »

ثم سلك ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هذا المسلك فقال فى كتاب الشعراء : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار إليه ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل بين الفريقين وأعطيت كلاً حظه ووفرت عليه حقه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله . ولم يقصر الله العلم بالشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ؛ وكان عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم . وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخزيمى والعتابى والحسن بن هانىء وأشباههم . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه وأثنينا عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه »

وأخذ مذهب التسوية بين القدامى والمحدثين يذيع على الأفواه ويُروى فى الكتب ، حتى شاع الترف والسرف والظرف فى حياة الناس فتفننوا فى أساليب العيش ، وتأنقوا فى أفانين الكلام ، واستحدث العراقيون ألوان البديع ، وأخذ البيانيون ينقبون عن أنواعه فى عبقريات المولدين ، كما كان اللغويون والنحاة ينقبون عن شواهد اللغة والنحو فى كلام الجاهليين والمخضرمين ، فبرز شأوهم على المتقدمين فى هذا المضمار ، وأخذت سوقهم تنفق ، وكفتهم ترجح ، حتى ظهر فى العلماء من يتعصب لهم ويتعزز بهم . وأشهر هؤلاء ابن الأثير ، فقد ناضل عنهم فى مواضع متفرقة من كتابه المثل السائر ، ومن ذلك قوله . « ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وُجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . ولقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس ، وأبى عبادة البحترى ، وأبى الطيب المتنبى ؛ وهؤلاء الشعراء هم لاتُ الشعر وعُزّاه ومَناته ، الذين ظهر على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد ضمت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء » وقال فى موضع آخر : « إن فى الشعراء المتأخرين مَن فاق المتقدمين . والذى أداني إليه نظر

من صميم الحياة:

قصـــة أب ... !

للاستاذ علي الطنطاوي

[مهداة إلى أخي الأستاذ عبد المنعم خلاف الذي لا يزال يؤمن بالانسان ... !] « علي »

دخل عليَّ أمس، بعد ما انصرف كتاب المحكمة، ولبست معطفي لأخرج، رجل كبير يسحب رجليه سحباً لا يستطيع أن يمشي من الضعف والكبر. فسلم، ووقف مستنداً إلى المكتب وقال:

إني داخل على الله ثم عليك[1]، أريد أن تسمع قصتي، وتحكم لي على من ظلمني.

قلت: تفضل، قُلْ أسمع.

قال: على أن تأذن لي أن أقعد، فوالله ما أطيق الوقوف.

(١) تعبير عامي لا بأس به، وقد أبقينا على مثلها في حديث الرجل.

قلت: أقعد، وهل منعك أحد من أن تقعد؟ أقعد يا أخي، فان الحكومة ما وضعت في دواوينها هذه الكراسي وهذه الأرائك الفخمة إلا ليستريح عليها أمثالك من الراجعين الذين لا يستطيعون الوقوف، ما وضعتها لتجمل من الديوان (قهوة) يؤمها (البطالون ...) الفارغون، ليشتغل الموظف بحديثهم عن أصحاب المعاملات ... ويضاحكهم ويساقيهم الشاي والمرطبات، والناس قيام ينتظرون لفتة أو نظرة من الـ (بك)!

لا. لسنا نريدها (فارسية) كسروية في المحكمة الشرعية، فاقعد مستريحاً فانه كرسي الدولة، ليس كرسيَّ أبي ولا جدي، وقل ما تريد ...

* * *

قال: أحب أن أقص القصة من أولها، فأرجو أن يسعني صبرك، ولا يضيق بي صدرك، وأنا رجل لا أحسن الكلام من أيام شبابي، فكيف بي الآن وقد بلغت هذه السن، ونزلت عليَّ المصائب، وركبتني الأمراض ... ولكني أحسن الصدق ولا أقول إلا حقاً ...

كنت في شبابي رجلا مستوراً أغدو من بيتي في حارة (كذا) على دكاني التي أبيع فيه الفجل والباذنجان والعنب،

الاجتهاد دون التقليد، أن جريراً والفرزدق والأخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية، وبينهم وبين أولئك فرق بعيد. وإذا استُفتيت قلت إن أبا تمام والبحتري والمتنبي أشعر من الثلاثة المذكورين، وليس عندي أشعر منهم في الجاهلية ولا في الإسلام ... وإذا أنصف الناظر وترك التحامل ثم ترك التقليد عرف أن حرف الميم وحرف اللام من شعر أبي الطيب المتنبي قد ضمنا من الجيد النادر ما لم يتضمنه شعر أحد الفحول من شعراء العرب ».

مما تقدم نستخلص أن علماء اللغة والنحو والبيان لم ينظروا إلى القصيدة باعتبارها كُلاًّ تتساوق أجزاؤه إلى غرض واحد، وإنما نظروا إلى ما تشتمل عليه أبياتها من غريب الكلم أو أصيل التراكيب أو محسنات اللفظ، وجعلوا ذلك سبب التفضيل وعلة الاختيار وأساس الحكم. وقلَّ منهم من فطن إلى وحدة القصيدة كالحصري القيرواني حين أشار إلى ذلك في زهر الآداب وروى عن الحاتمي قوله: « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالمه. وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شواهد النقصان، ويقف منهم على محجة الاحسان، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمديحها، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها من جزء. وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم »؛ ولكنهم لم يبسطوا هذا الرأي ولم يطبقوه فيما عالجوه من النقد والموازنة.

(للكلام بقية) أحمد حسن الزيات

وما يكون من خُضر الموسم وثمراته ، فأربح قروشاً معدودات أشترى بها خبزى ولحمى ، وآخذ ما فضل عندى من الخضر فيطبخه (أهل البيت[١]) ونأكله وننام حامدين ربنا على نعمائه ، لا نحمل همّاً ولا نفكر فى غد ، ولا صلة لنا بالناس ولا بالحكومة ، ولا نطالب أحداً بشيء ولا يطلب منا شيئاً . ولم أكن متعلماً ولا قعدت فى مدرسة ، ولكنى كنت أعرف كيف أصلى فرضى ، وأحسب دراهمى ... ولقد عشت هذا العمر كله ولم أغش ولم أسرق ولم أربح إلا الربح الحلال ، وما كان ينغّص حياتى إلا أنه ليس لى ولد ، فجربنا الوسائل وسألنا القابلات ولم يكن فى حارتنا طبيب ولم نحتج إليه . فقد كان لنا فى طبّ (حُسُو العطار) وزُهوراته وحشائشه ما يغنينا عن الطبيب والصيدلى . وإذا احتجنا إلى خلع ضرس فعندنا الحلاق ، أما أمراض النساء فمردُّ أمرها إلى القابلة ، ورحم الله أم عبد النافع قابلة الحارة ، فقد بقيت أربعين سنة تولد الحاملات ولم تكن تقرأ ولا تكتب .

أقول إنا سألنا القابلات والعجائز فوصفن لنا الوصفات فاتخذناها ، وقصدنا المشايخ فكتبوا لنا التمائم فعلقناها ، فلم نستفد شيئاً ؛ فلم يبق إلا أن ننظر أول جمعة فى رجب لنقصد (جامع الحنابلة)[٢] ، فلما جاءت بعثت (أهل البيت) فقرعت حلقة الباب وطلبت حاجتها فنالت طلبها[٣] ... وحملت ...

وصرت أقوم عنها بالثقيل من أعمال المنزل لأريحها خشية أن تسقط حملها وأكرمها وأدللها . وصرنا نعد الأيام والساعات حتى كانت ليلة المخاض فسهرت الليل كله أرقب الوليد ، فلما انبلج الفجر سمعت الضجة وقالت (أم عبد النافع) : البشارة يا أبا ابراهيم ! جاء الصبى .

ولم أكن أملك إلا ريالا مجيدياً واحداً فدفعته إليها .

وقلّبنا الصبى فى فرش الدلال ، إن ضحك ضحكت لنا الحياة ، وإن بكى تزلزلت لبكائه الدار ، وإن مرض اسودت أيامنا وتنغص عيشنا . وكلما نما أسبوعاً كان لنا عيد ، وكلما نطق بكلمة جدت لنا فرحة ، وصار إن طلب شيئاً بذلنا فى إجابة مطلبه الروح ...

(١) كذلك يكنى الشاميون عن الزوجة إلى اليوم على عادة العرب من كراهية التصريح بذكرها .

(٢) فى الصالحية على سفح جبل قاسيون وكان يسمى دير الحنابلة وكان قائماً قبل أن يبنى آل قدامة حى الصالحية من نحو ثمانمائة سنة .

(٣) خرافة دمشقية وثنية كان أستاذنا الشيخ بهجة البيطار يشدد الحملة عليها كل سنة .

وبلغ سن المدرسة ، فقالت أمه : إن الولد قد كبر فماذا نصنع به ؟

قلت : آخذه إلى دكانى فيتسلى ويتعلم الصنعة .

قالت : أيكون خضرياً ؟

قلت : ولم لا ؟ أيترفع عن مهنة أبيه ؟

قالت : لا والله العظيم ! لابد أن ندخله المدرسة مثل عصمه ابن جارتنا سموحى بك . أريد أن يصير (مأموراً) فى الحكومة فيلبس (البدلة) والطربوش مثل الأفندية ...

وأصرت إصراراً عجيباً ، فسايرتها ، وأدخلته المدرسة ، وصرت أقطع عن فمى وأقدم له ثمن كتبه . فكان الأول فى صفه ، فأحبه معلموه وقدروه وقدموه ...

ونجح فى الامتحان ، ونال الشهادة الابتدائية . فقلت لها : يا امرأة ! لقد نال ابراهيم الشهادة ، فحسبنا ذلك وحسبه وليدخل الدكان .

قالت يوه ! ويلى على الدكان ... أضيع مستقبله ودراسته ؟ ! لا بد من إدخاله المدرسة الثانوية .

قلت : يا امرأة ، من علمك هذه الكلمات ؟ ما مستقبله ودراسته ؟ أيترفع عن مهنة أبيه وجده ؟ قالت : أما سمعت جارتنا أم عصمة كيف تريد أن تحافظ على مستقبل ابنها ودراسته ؟ قلت : يا امرأه ، اتركى البكوات ... نحن جماعه عوام مستورون بالبركة ، فما لنا وتقليد من ليسوا أمثالنا ؟

فولولت وصاحت : ودخل الولد الثانوية ، وازدادت التكاليف فكنت أقدمها راضياً ... ونال البكالوريا .

قلت : وهل بقى شيء ؟

قال الولد : نعم يا بابا . أريد أن أذهب إلى أوربا

قلت : أوربا ؟ وما أوربا هذه ؟ !

قال : إلى باريز ...

قلت : أعوذ بالله ! تذهب إلى بلاد الكفار ؟ والله العظيم إن هذا لا يكون !

وأصر وأصررت وناصرته أمه ، فلما رأتنى لا ألين ، باعت سوارى عرسها وأقراطها ، وذلك كل ما لها من حلى اتخذتها عدة على الدهر ، ودفعت ثمنها إليه فسافر على الرغم منى !

وغضبت عليه وقاطعته مدة ، فلم أرد على كتبه ، ثم رق قلبى وأنت تعلم ما قلب الوالد ؟ وصرت أكاتبه وأسأله عما يريد ... فكان يطلب دائماً . .

ارسل لى عشرين ليرة ... ارسل لى ثلاثين ... فكنت أبقى أنا وأمه ليالى بطوننا على الخبز القفار وأرسل إليه ما يطلب !

وكان رفاقه يجيئون فى الصيف وهو لا يجيء معهم ، فأدعوه فيعتذر بكثرة الدروس ، وأنه لا يحب أن يقطع وقته بالأسفار !

ثم ارتقى فصار يطلب مئة ليرة . . وزاد به الأمر آخر مرة فطلب ثلاثمئة !

تصور يا سيدى ما ثلاثمئة ليرة بالنسبة لخضرى تجارته كلها لايساوى ثمنها عشرين ليرة ، وربحه فى اليوم دون الليرة الواحدة ؟ ويا ليته كان يصل إليها فى تلك الأيام التى رخصت فيها الأسعار ، وقل العمل ، وفشت البطالة ، ثم إنه إذا مرض أو اعتل علة ، بات هو وزوجته على الطوى ... فكتبت إليه بعجزى ونصحته ألا يحاول تقليد رفاقه ، فإن أهلهم موسرون ونحن فقراء . فكان جوابه برقية مستعجلة يطلب المال حالا !

وإنك لتعجب يا سيدى إذا قلت لك إنى لم أتلق برقية قبلها فى عمرى . فلما قرع موزع البريد الباب ودفعها إلى ، وأخذ إبهام يدى فطبع بها فى دفتره ، انخرطت كبدى من الخوف ، وحسبتها دعوة من المحكمة ، وتوسلت إليه وبكيت ، فضحك الملعون منى وانصرف عنى ، وبتنا بشر ليلة ما ندرى ما ذا نصنع ، ولا نعرف القراءة فنقرأ ما فى هذه الورقة الصفراء ، حتى أصبح الله بالصباح ولم يغمض لنا جفن ، وخرجت لصلاة الغداة فدفعتها لجارنا عبده أفندى فقرأها وأخبرنى الخبر ، ونصحنى أن أرسل المبلغ ، فلعل الولد فى ورطة وهو محتاج إليه !

فبعت دارى بنصف ثمنها ، أتسمع يا سيدى ؟ بعت الدار بمئتى ليرة ، وهى كل ما أملك فى هذه الدنيا ، واستدنت الباقى من مراب يهودى دلونى عليه بربا تسعة قروش عن كل ليرة فى الشهر ، أى أن المئة تصير فى آخر السنة مئتين وثمانية ! وبعثت بذلك إليه وخبرته أنى قد أفلست !

وانقطعت عنى كتبه بعد ذلك ثلاث سنوات ، ولم يجب على السيل من الرسائل التى بعثت بها إليه ! !

ومر على سفره سبع سنين كوامل لم أر وجهه فيها ، وبقيت بلا دار ، ولاحقنى المرابى بالدين ، فعجزت عن قضائه ، فأقام على الدعوى ، وناصرته الحكومة علىّ لأنه أبرز أوراقاً لم أدر ما هى فسألونى : أأنت وضعت بصمة اصبعك فى هذه الأوراق ؟

قلت : نعم . فحكموا علىّ بأن أعطيه ماير يد وإلا فالحبس .

وحُبست يا سيدى . نعم حبست وبقيت (المرأة) وليس لها إلا الله ، فاشتغلت غسّالة للناس ، وخادمةً فى البيوت ، وشربت كأس الذل حتى الثمالة

ولما خرجت من السجن قال لى رجل من جيراننا : أرأيت ولدك ؟ قلت : ولدى ؟ ! بشّرك الله بالخير . أين هو ؟ قال : ألا تدرى يا رجل أم أنت تتجاهل ؟ هو موظف كبير فى الحكومة ويسكن مع زوجته الفرنسية داراً فخمة فى الحىّ الجديد

وحملت نفسى وأخذت أمه وذهبنا إليه ، وما لنا أمنيّة فى العيش إلا أن نعانقه كما كنا نعانقه صغيراً ، ونضمه إلى صدورنا ونشبع قلوبنا منه بعد هذا الغياب الطويل . فلما قرعنا الباب ، فتحت الخادمة ، فلما رأتنا اشمأزت من هيئتنا ، وقالت : ماذا تريدون ؟ قلنا : نريد ابراهيم . قالت : إن البك لا يقابل الغرباء فى داره ، إذهبا إلى الديوان . قلت : غرباء يا قليلة الأدب ؟ أنا أبوه . وهذه أمه.

وسمع ضجتنا فخرج ، وقال : ما هذا ؟ وخرجت وراءه امرأة فرنسية جميلة

فلما رأته أمه بكت وقالت : ابراهيم حبيبى ؟ ومدّت يديها وهمّت بالقاء نفسها عليه ، فتخلى عنها ونفض ما مسته من ثوبه وقال لزوجته كلمة بالفرنساوى ، سألنا بعد عن معناها فعلمنا أن معناها (مجانين) !

ودخل وأمر الخادم أن تطردنا ... فطردتنا يا سيدى من دار ولدنا !

وما زلت أتبعه حتى علقت به مرة فهددنى بالقتل إذا ذكرت لأحد أنى أبوه وقال لى : ما ذا تريد أيها الرجل ؟ دراهم ؟ أنا أعمل لك راتباً بشرط ألا تزورنى ولا تقول إنك أبى ! !

ورفضت ياسيدى الراتب وعدت أستجدى الناس ، وعادت أمه تغسل وتخدم حتى عجزنا وأقعدنا الكبر والمرض فجئت أشكو إليك فماذا نصنع ؟

فقلت للرجل : خبرنى أولا ما اسم ابنك هذا وما هى وظيفته ؟

فنظر إلىّ عاتباً وقال : أتحب أن يقتلنى ؟ !

قلت : إن الحكم لا يكون إلا بعد دعوى ، والدعوى لا تكون إلا بذكر إسمه .

قال : إذن أشكو شكاتى لله .

وقام يجرّ رجله يائساً ... حتى خرج ولم يعد !

على الطنطاوى

شريعة الكمال والخلود . . .

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

بينا فى مقالنا السابق كمال الشريعة الإسلامية وسعة مباحثها وعدالة أحكامها ، ونفينا عنها الشبهة الأولى التى وجهت إليها ، وهى قصورها ، وأثبتنا وفاءها بحاجات الأمم ومطالبها فى كل عصر بما فيها من نصوص محكمة ، وقواعد سامية ، وأصول على وجه الدهر قائمة

وفى هذا المقال ننظر فى الشبهة الثانية ، وهى أن العقوبات التى قدرتها الشريعة فى الحدود قاسية ، بل أسرف بعض الغالين فقال : إنها وحشية لا تتفق مع روح المدنية : فقد حكمت برجم الزانى إذا كان محصناً ، وبجلد غير المحصن مائة جلدة ، وقضت بقطع يد السارق ، وبجلد شارب الخمر والقاذف ثمانين جلدة .

ولدحض هذه الحجة وإزاحة تلك الشبهة نقول : إن جميع الشرائع والقوانين السماوية والوضعية ترمى فى غايتها إلى المحافظة على الضرورات الخمس : النفس والعقل والمال والنسل والدين ، إذ يترتب على التفريط فيها والاعتداء عليها التنازع والتظالم وسفك الدماء وفقد الأمن فى الأنفس والأموال والأعراض ، وانتشار المفاسد والشرور

ولكن القوانين الوضعية — وبخاصة القوانين الأوربية — تجانفت عن المحجة ، وحادت عن الجادة ، وتنكبت الصراط السوى ، فلم تستطع المحافظة عليها بما يقطع دابر الفساد ، وذلك لأنها لم تحرم الزنا إلا فى حالات معينة ، وأباحته عند الرضا فى أكثر الحالات محتجة بالمحافظة على الحرية الشخصية ، فكانت عاقبة ذلك كثرة اللقطاء الذين حرموا تربية الآباء وشفقتهم ، وانتشار الأمراض السرية التى تفتك بالصحة فتكا ذريعاً ، والإحجام عن الزواج الذى ترتب عليه بقاء كثير من النساء فى حالة من المسكنة والبؤس والتعس والشقاء . وفى الحالة المعينة التى حرمت فيها الزنا لم تفرض إلا أيسر العقوبات ، فظلت الحال على ما هى عليه من انتشار البغاء وتمكن الشر والفساد

أما الاحتجاج بالحرية الشخصية فمردود ، فإن من القواعد المسلم بها أن للانسان مطلق الحرية الشخصية إلا فيما يعود بالضرر على نفسه أو على غيره . وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن الزنا ضار بالزانيين صحيا وأدبيا ، ثم يتعدى الضرر منهما إلى غيرهما من أسرتيهما ، وهو تدنسهما بفضيحة الجناية على الأعراض ، وهى عند من لم تمسخ طبائعهم لا تقل ضررا عن التعدى على الأنفس بالقتل ، ولهذا ترى الأفراد فى الأمم حتى اليوم — خصوصا فى الأمم الشرقية ومنها مصر — يحفزهم دافع الشرف إلى الانتقام لأعراضهم ، وبذلك كثرت جرائم القتل من أجل الزنا.

كذلك أباحت هذه القوانين الغربية تعاطى المسكرات بحجة الحرية الشخصية ، ومادروا أن هذه الحرية قاتلة بشهادة الأطباء الذين قرروا ضررها وإيذاءها للجسم وتأثيرها فى الكبد .

هذا إلى إضاعتها للمال فى غير مصلحة ولا فائدة محققة ، وجنايتها على العقل ، وذلك شرعظيم قد يؤدى إلى مفسدة كبرى ؛ فقد يقتل السكر ، وقد يهجر زوجه وولده ويخرب بيته ، وقد يجنى حتى على عرضه . وليس أدل على ذلك مما قرأناه فى الصحف أن رجلا مدمنا هجرته زوجه لذلك ، فسطا فى غيبة عقله وضياع رشده على عرض إبنته الصغيرة ، ثم تعدى أيضا على عرض ابنه الذى لم يتجاوز إحدى عشرة سنة .

هاتان جريمتان متأصلتان فى نفوس البشر لأنهما صادرتان عن جبلة تزين للناس حب الشهوات . وقد رأيت أنهما مصدران لكثير من الشرور والآثام والمفاسد التى تنخر عظام الأمم ، وتدع المجتمع سقيما بالأوصاب والعلل الاجتماعية ، مهدداً بالانحلال والفناء .

أفترى مع هذا أن عقوبة الحبس أو التغريم زاجرة أو رادعة أو متكافئة مع الآثار السيئة والعواقب الوبيلة التى أسلفنا ذكرها ؟ لا شىء من ذلك يكون رادعا ، أو يكون من شأنه اجتثاث هذه الجرائم فلم يبق إلا أن تكون العقوبة بدنية لأنها أنفذ فى النفس أثرا ، وأشد وقعا ، وأبلغ فى زجر الجانين وردع غيرهم وأدنى إلى إصلاح النفوس وتطهير القلوب .

بقيت السرقة والقانون الأوربى يعاقب عليها كما تعاقب الشريعة الإسلامية ، غير أن العقوبة فى القانون الأول بغير القطع كالحبس ، وفى الشريعة الإسلامية بقطع اليد .

وحكم الشريعة أولى بالاتباع وأحق بالمراعاة وأجدر بالتقدير فإن السارق يأخذ خفية ويعتدى على صاحب المال فى غفلته ، فهو جبان فى اعتدائه ، نذل فى خديعته ، يستلب منه أعز شىء لديه بعد حياته وعرضه ، وقد يرتكب جريمة القتل مع السرقة ، بل كثيراً ما تقع هذه الجريمة كوسيلة يتذرع بها إلى إتمام سرقته أو للفرار من تبعاتها ، فيقتل من غير تفريق ولا تمييز ، حتى الطفل فى مهاده ، والشيخ الهِمّ فى فراشه .

فإذا كانت عقوبة السارق . وهو الذى يهدد المجتمع بأمضى الأسلحة وأخسها — هى الحبس ، فهل يتزجر بها ويرتدع ؟ ! وهل تؤثر فيمن تحدثهم أنفسهم بارتكاب هذه الجريمة ؟ ، وهل يتحقق بذلك الأمن على النفوس والأموال ؟ ! كلا ، ولهذا نرى السرقات لا تقل ولا تنقطع ، بل نراها تكثر فى مضاعفة وازدياد لأن العقوبة غير زاجرة ، ومن ثم نرى اللصوص فى هذا العصر الذى يزعم قادته أن قطع اليد لا يتفق مع روح المدنية — ينظمون أنفسهم ، ويكونون عصائب قوية مسلحة كأنها حكومة داخل حكومة ، لا يبالون الأموال ولا الأرواح ، كما نشاهد ذلك فى الولايات المتحدة وغيرها .

ولو كانت العقوبة بدنية فى مثل هذه الجرائم المهددة للأمن المثيرة للشر والفساد ، القاضية على راحة المجتمع وطمأنينته لا تحسم الشر من أصله ، ولقلت هذه الجرائم ، ولسلم المجتمع من رجزها وتطهر من رجسها — كما نشاهد آثار ذلك اليوم فى البلاد الحجازية فى عهد حكومتها السعودية ، وقد كانت من قبل مسلوبة الأمن لا يطمئن فيها مقيم ولا ظاعن على نفسه ولا على ماله .

وقد جاء فى تقرير بعثة الشرف المصرية الموفدة إلى الحجاز فى سنة ١٣٥٥ — الهجرية ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن تنفيذ حدود الله تعالى كفيل باستتباب الأمن وراحة البلاد ، وقاطع لدابر الفساد ، وأن تنفيذ أحكام شريعته يفضى إلى خير العواقب ، ويؤتى أطيب الثمرات — قالت البعثة فى هذا التقرير :

« لا يفوتنا أن نذكر مع الإعجاب حالة الأمن فى تلك البلاد — تعنى بلاد الحجاز — فإن الأمن هناك مستتب موطد الأركان فى كل مكان ، وبخاصة فى الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة وإلى عرفات وإلى المدينة المنورة ، مع كثرة القبائل الضاربة فى جوانبها ، وقد كانت من قبل مصدراً للسلب والاعتداء على حجاج بيت الله ، وفرض الضرائب غير المشروعة عليهم . ويرجع الفضل فى ذلك كله إلى يقظة رجال الحكومة العربية السعودية وضربهم على أيدى العابثين بأشد العقوبات كقطع يد السارق ، وقطع أيدى وأرجل قطاع الطريق من خلاف . ومما يدعو إلى تمام الرضا والإعجاب أن تنفيذ العقوبة مرة واحدة كاف غالباً فى عدم تكرار وقوع الجريمة التى تستوجبها » .

ذلك والشرع الإسلامى الحكيم لم يحدد العقوبات إلا فى أمهات الجرائم وكبائر المعاصى ، وهى التى يضطرب لها حبل الجماعات وتشقى بها الأمم ، وهى فى خمسة مواطن :

١ — فى الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ، وهم قطاع الطريق .

٢ — والذين يقتلون النفس بغير حق

٣ — والذين يرمون المحصنات الغافلات

٤ — والزانية والزانى

٥ — والسارق والسارقة .

وما عدا ذلك من الجرائم لم يحدد العقوبات فيها ، بل ترك للحكام وأهل الرأى من العلماء والمجتهدين أمرها ليلاحظوا ملابسات الجريمة وحالة المجرم ، وما يناسب البيئة ويتفق مع أحوال الأمة فى مختلف عصورها ، وذلك ما أسلفنا شرحه فى مبحث التعزير .

وكان من حكمة الله — جل شأنه — ورحمته بالناس أنه بين لهم العقوبات فى المواطن الخمسة السابقة ، إذ لو وكل إلى عقولهم استنباطها — وهى جد خطيرة — لذهبت بهم الآراء كل مذهب ولعظم الاختلاف واشتد الخطب ، فكفاهم أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين مئونة ذلك ، وتولى بعلمه وحكمته ورحمته تقديرها ، ورتب على كل جناية ما يناسبها من العقوبة ويليق بها من النكال

على أنه لم يفت الشارع أن العقوبات فى الحدود بدنية ، وأن بعضها — لعظم الجرم — شديد كما فى الزنا ، وأن الخطأ إذا تبين بعد تنفيذها جسيم ، ولذلك احتاط لها عند إثبات أسبابها وتحقيق ما يوجبها ، ومن ذلك درء الحدود بالشبهات حتى صار قاعدة من قواعد الفقه الإسلامى ، والأصل فى تقريرها ما أخرجه الترمذى والحاكم من حديث عائشة : « أدرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله ، فإن الإمام

أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » ، وروى عنه صلى الله عيه وسلم : « ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً » :

بذلك البيان الذى ورد فى هذا البحث يقتنع كل منصف بأن العقوبات التى قدرها الشارع فى الحدود قد دعت إليها الحكمة واقتضتها مصلحة الأفراد وسعادة الجماعات وسلامة الأمم ، وبهذه الأحكام التى بينا لك وجوه المصلحة والنفع فيها تجلت لك حكمة الشرع الإسلامى فيما شرعه من الحدود ، ووضح لك أنها — دون سواها — هى التى تتقرر بها المصالح وتندفع بها الآثام والمفاسد . وبذلك ثبت كمال هذه الشريعة وسعتها وعدالة أحكامها ، وأنها بما قامت عليه من أصول وقواعد ، وبما تغذى به من الأحكام الاجتهادية — صالحة على الدوام لكل أمة فى أى عصر ، تفى بحاجتها ومطالبها وتساير ما يطرأ عليها من مختلف التطور والأحوال .

حسن أحمد الخطيب

راجع القياس فى الشرع الاسلامى لابن تيمية و بن القيم ص ١٥٠ من الطبعة السلفية

تاريخ جحــــا . . .

للأستاذ كامل كيلانى

١ — خرافة وجحوان :

منذ خمسة عشر قرناً ، تنقص بضعة عقود — أعنى تنقص عشرات قليلة من السنين — ولد « خرافة » ذلكم القاص العربى المخضرم البارع ، الذى عاش فى العصرين : الجاهلى والإسلامى .

وقد عاصر «خرافة» — فيمن عاصر — جحوان الصحابى : جد « أبى الغصن عبد الله دجين بن ثابت » الملقب بجحا : شيخ الفكاهة الشرقية الباسمة الساخرة ، ورمز الدعابة الفلسفية المرحة الساخرة .

وقد كان « خرافة » — فيما يقول عارفوه — طرافاً وصافاً ، بارع المقال ، رائع الخيال ، يروى للناس عجائب من أخبار العفاريت والجن وطرائفهم وملحهم ، ويقص عليهم من ذلكم غرائب معجبة يزعم لمعاصريه أنها حدثت له .

٢ — حديث خرافة :

كان « خرافة » فيما يقول المفضل الضبى فى أمثاله — معاصراً للنبى ، وقد حدثه ببعض أحاديثه فأعجب بها ، كان يحدث الناس أحاديث طريفة شائقة ، منها الحديث التالى :

خرج « خرافة » — ذات ليلة — فلقى ثلاثة من الجن فسبوه (أى : أسروه) فقال أحدهم : « نعفو عنه » وقال الثانى : « نقتله » ، وقال الثالث : نستعبده (أى : نجعله عبداً لنا) . »

فبينما هم يتشاورون — فى أمره — إذ ورد عليهم رجل ، فقال « السلام عليكم » فقالوا « وعليك السلام » قال « وما أنتم ؟ » قالوا : « نفر (أى : جماعة) من الجن أسرنا هذا الرجل ، فنحن نأتمر فى أمره »

فقال : « إن حدثتكم حديثاً عجيباً أتشركوننى فيه ؟ » قالوا : « نعم » قال :

« إنى كنت ذا نعمة ، فزالت وركبنى دين ، فخرجت هارباً ، فأصابنى عطش شديد ، فسرت إلى بئر ، فنزلت لأشرب ، فصاح بى صائح من البئر ، فخرجت منها ولم أشرب .

فغلبنى العطش فعدت ، فصاح بى ، ثم عدت الثالثة فشربت ولم ألتفت إليه فقال : اللهم إن كان رجلا فحوله امرأة ، وإن كانت امرأة فحولها رجلا . »

فإذا أنا امرأة .

فأتيت مدينة فتزوجنى رجل ، فولدت منه ولدين ، ثم عدت إلى بلدى فمررت بالبئر التى شربت منها ، فصاح بى — كما صاح فى الأول — فشربت ولم ألتفت إليه . فدعا — كالأول فعدت رجلا كما كنت .

ثم عدت إلى بلدى فتزوجت امرأة فولدت منها ولدين .

فلى اثنان من ظهرى واثنان من بطنى .

فقالوا له : « إن هذا لعجيب ، أنت شريكنا . »

* * *

فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثور يطير (أى : يسرع فى سيره) ، فلما جاوزهم ، إذا رجل — بيده خشبة — وهو يحفز فى أثره (أى : يجرى خلفه) ، فوقف وسلم ، فردوا عليه مثل ردهم على صاحبهم .

فقال : إن حدثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركوننى فيه ؟ »

قالوا : « نعم »

قال : « كان لى عم ، وكان موسراً ، وكانت له ابنة جميلة ، وكنا سبعة إخوة . وكان لعمى عجل يربيه ، فانفلت .

فقال : « أيكم يرده لى ، فابنتى له . »

فأخذت خشبتى هذه واتزرت ثم حفزت فى أثره — وأنا غلام — فلا أنا ألحقه ، ولا هو يكل . »

فقالوا : إن هذا لعجيب . فأنت شريكنا »

* * *

فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى ، وخلفه غلام على فرس ذكر . فسلم — كما سلم صاحباه — فردوا عليه كردهم على صاحبيه . فسألهم فأخبروه الخبر .

فقال : إن حدثتكم بحديث أغرب من هذا أتشركوننى فيه ؟ » فقالوا : « نعم » وهنا تحدثنا الأسطورة أن الرجل أخبرهم أن الفرس الأنثى هو أمة ، وأن الفرس الآخر هو عبد من الأشرار ، وأنهما ائتمرا به ليسحراه ، فيصفو لهما الجو .

ثم قال للفرس الأنثى التى تحته : « أ كذلك ؟ »

فقالت — برأسها — « نعم » .

وأشار إلى الفرس الذكر الذى تحت غلامه : « أهكذا »

فقال — برأسه — : « نعم »

قال :« فوجهت بغلامى هذا الراكب — ذات يوم — فى بعض حاجاتى ، فحبسته أمى عندها . فأغفى . فرأى فى منامه كأنها صاحت صيحة ، فإذا هى بجرذ قد خرج .

فقالت : « إسجد » فسجد

ثم قالت : « إكرب (أى : اقلب الأرض للحرث) . »

فكرب .

ثم قالت : « إدرس » فدرس .

ثم دعت برحى فطحنت قدح سويق — (والسويق كما تعلمون : هو الناعم من دقيق الحنطة والشعير) . فأتت به الغلام ، وقالت له : ائت به مولاك فأتانى به .

فاحتلت عليهما حتى سقيتهما القدح ، فإذا هى فرس أنثى ، وإذا هو فرس ذكر قال « أ كذلك ؟ »

قالت الفرس الأنثى — برأسها — : « نعم »

وقال الفرس الذكر — برأسه — : « نعم »

فقالوا : « إن هذا أعجب شيء سمعناه ، أنت شريكنا . »

فأجمع رأيهم فاعتقوا « خرافة » .

٣ — بعد موت خرافة :

وهكذا أصبح كل حديث طريف تسترعى الأسماع غرابته ، وتبهج النفوس براعته ، ينسب إلى « خرافة » حتى يومنا هذا ، وأصبحت كلمة « خرافة » مرادفة لكل حديث خيالى لا حقيقة له . وكاد ينسى الناس أن « خرافة » علم على شخص بعينه ، عرف الناس وعرفوه ، وألفهم وألفوه .

* * *

ثم مضى القرن الأول ، ومضى معه « خرافة » ومعاصروه ، وانطوى بانطوائه بارع حدث (أى : حسن الحديث) ، لم تبق لنا — من روائعه المستفيضة — إلا سطور ، كأنما بقيت على الدهر ، وغالبت أحداثه ، لتشعرنا بمقدار ما منى به تاريخ القصص العربى من خسارة ، بفقدان أمثال هذه الكنوز الفكرية التى لا تعوض .

٤ — جحا العربى :

ثم جاء القرن الثانى ، ومعه هدية من أنفس الهدايا الفنية التى يعتز بها عالم الفكاهة والمرح ، فكان من مولوديه شيخ السخرية العربية ، وإمام الفكاهة الشرقية : « أبو الغصن عبد الله دجين بن ثابت » الملقب بجحا .

وقد نشأ السيد جحا فى « الكوفة » ورأى — فيمن رآه — من أفذاذ معاصريه « أبا مسلم الخراسانى »

وكانت أم « جحا » تخدم أم سليم بنت ملحان : والدة مالك بن أنس : راوية الحديث المعروف .

* * *

وقد لقى السيد جحا من التقدير والإعجاب فى القرن الثانى من الهجرة مثل ما لقى سابقه « خرافة » من قبل . ولم يقل شأنه عن صاحبه : تقديراً وإعجاباً ، ونباهة ذكر ، وبعد صيت .

وأعجب الناس بأسلوبه السهل الممتنع فى فهم الحياة كما أعجبوا

بما سمعوا به من طرائف وملح .

واشتد به إعجابهم فخلعوا لقبه كما خلعوا لقب سابقه « خرافة » من قبل — على كل عجيب من القول وطريف من الحديث .

وأصبح للقصص الجحوى خصائصه وميزاته ، كما أصبح للقصص الخرافى من قبله — بدائعه وخيالاته .

٥ — الفن الجحوى :

واشتد إعجاب بعض الناس به فأطلقه على وليده ، وافتن آخرون فأضافوا إلى طرائفه كثيراً من مخترعاتهم وفنون مبتدعاتهم ، وهكذا صنعوا بألف ليلة التى أضافوا إليها جمهرة من طرائفه كما أضافوا إليه جمهرة من قصصها ، حتى تعذر التمييز بين الأصول الجحوية ، والمحاكاة الروية . ولا سيما بعد أن اختلطت بفكاهات «أبى العيناء» و « الشعبى » و « أبى دلامة » و « أشعب » و « الناضرى » و « أبى المنبس » و « البهلول » و « الجماز » و « الحمدونى » ومن إليهم من أعلام الدعابة العربية ، ثم زاد عليها المتزيدون جمهرة من فكاهات الحمقى والمغفلين والطفيليين من أمثال « هبنقة » (١) و « فند » (٢) وطفيل (٣) وأضرابهم .

فتجمعت أشتاتهم فى واحد إلا يكنهم أمة فكاد

***

وهكذا أسند الناس إلى جحا كل طريف من الملح وعجيب ، فكاد يصبح — كما أصبح خرافة — علماً على فن بعينه من فنون القول بعد أن كان علماً على شخص بعينه من أفذاذ الناس .

٦ — جحا التركى :

فلما جاء القرن الثامن الهجرى حمل معه — فيمن حمل — علماً آخر من أعلام الفكاهة الشرقية وإماماً من أئمة الدعابة التركية هو « الأستاذ نصر الدين »

ولد فى إحدى بلاد الأناضول ، وكانت « سيورى حيصار » مسقط رأسه . ومات فى « آق شهر » ومعناها : البلد الأبيض .

وقد عاش فى عهد السلطان « أورخان » وعمر — فيما يقولون — ستين عاماً أو قريباً .

٧ — الباطشان :

ولقى « نصر الدين » — فيمن لقى — الباطش السفاح « تيمورلنك » كما لقى « أبو الغصن جحا » — فى عصره — الباطش السفاح : « أبا مسلم الخرسانى »

وهكذا عاش كلاهما فى عصر مضطرب ، وعاصر كلاهما — فيمن عاصر — قائداً سفاكاً ، متعطشاً للدماء ، باطشاً بالأقوياء والضعفاء .

٨ — الجحوان :

وذاع أمر الأستاذ « نصر الدين » ، وراجت دعاباته ، ولقى من الحظ مثلما لقى صاحباه : « خرافة » و « جحا » من قبل .

ولما كان لقب أستاذ بالتركية هو لفظ « خوجة » ، حوله النقلة إلى جحا لتقارب اللفظين وتشابه الرجلين ، وقد كدنا نقول : تطابق الشخصيتين .

وما لبث الأستاذ « نصر الدين » أن استأثر — بعد موته — بلقب جحا وكاد يستأثر بكل طرائفه وملحه فلا يبقى له منها شيئاً جل أو حقر .

***

وأعلنت بعض المجلات مكافأة لمن يبعث إليها بطريفة مروية عن الأستاذ « نصر الدين » أو « نصر الدين خوجة » أو جحا التركى . فراح الناس ينقبون ويغيرون على نفائس الملح حتى نسبوا إليه جمهرة من الطرائف العربية وغيرها ، فلم ينج من غاراتهم : كتاب كليلة ودمنة فى الشرق ، ولا قصص « بوكاتشو » فى الغرب .

ثم ما لبثت الأمم أن تنازعت كثيراً من القصص الجحوى نصاً ومزيداً وناقصاً ووافياً ، وأميناً ومحرفاً ، ومبتدعاً ومشوهاً ، وأسندته كل أمة إلى جحاها .

كامل كيلانى

---

(١) لقب ذى الودعات يزيد بن ثروان ، وكان مضرب المثل فى الحمق.

(٢) الفند : الجبل ، وقد سمى به صاحبنا لثقاله فى الحاجات . ومن قول على بن أبى طالب للأشتر النخعى: « لو كان جبلا لكان فنداً ، لا يرتقيه الحافر ، ولا يوفى عليه الطائر »

(٣) رجل كوفى كان يأتى الولائم والأعراس من غير أن يدعى إليها.

القوة والحيـــاة ...

للأستاذ محمد عاطف البرقوقى

قوة الفرد :

القوة مصدر من مصادر سعادة الإنسان ، ومظهر من مظاهر العز والحياة ، إن اكتسبها شخص زاد نشاطه ، وكثر إنتاجه ، وصارت فى يده سلاحاً يشق به لنفسه سبل النجاح ، وهو سبيل واسع الحق صعبة التمهيد ، بعيدة المدى ، يحتاج تمهيدها إلى جهد شاق متواصل ، يعجز عن الاستمرار فيه الضعفاء ، ويصل إلى نهايته الأقوياء . والشخص القوى تجده عريض المنكبين ، بارز الصدر مفتول الذراعين ، يترقرق فى وجهه دم الصحة والفتوة ، أقدر من غيره على تحمل المشاق ، وأقوى من سواه فى التغلب على الصعاب . وقد قيل بحق « الحياة جهاد ، والبقاء فيها للأصلح »

فلا غرو إذا كانت القوة موضع التبجيل منذ أقدم العصور ، وحديثاً ينظم المباريات لنيل بطولة القوة ، فهذا بطل فى رفع الأثقال ، وذاك بطل فى العدْو . ويكرم البطل لأنه عنوان الفخر لأمته ، ولا غرو فإن الأمة هى مجموعة أفرادها ، فإن كان أفراد الأمة أقوياء بلغت الأمة ذروة المجد والفخار .

قوة الأمة :

والقوة إن اكتسبتها أمة أصبحت مهيبة الجانب ، آمنة العواقب ، لايقدم على الاعتداء عليها معتد ، ولا يغير عليها مغير ، وقد قيل « الحق مع القوة » وهو المبدأ الذى يتسلط على عقلية الدول فى الحروب ، ويدفعها إلى الحركة والعدوان ، ويحفزها للكر والفر والطيران ، ويمنعها من الإحجام ويحرضها على الإقدام، فتنتظم الجيوش البرية ، تقطع الفيافى والقفار ، وتتحرك الأساطيل البحرية ، تطهر البحار والأنهار ، وتطير الطائرات الجوية ، تغير على المدن والأمصار ، فتستعر الحرب ويشب ضرامها ، ويشتد القتال وتندلع النيران ويمتد لهيبها ، والغلبة عندئذ للأقوى ، والنصر فى النهاية لمن فاقت قوته ، والهزيمة لمن انكسرت شوكته ، وحتى فى وقت السلم تنادى بعض الدول بنزع السلاح وتطالب بالعدالة والإنسانية والمساواة ، وهى مبادىء إن عمل بها انتفت الشكايات وبطلت الحرب ، ولكنها غرائز الإنسان المبنية على الأثرة ، والمؤسسة على حب النفس ، والمطبوعة على الظلم حتى لقد قيل :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعـلة لا يظلم

ولذلك تلجأ بعض الدول إلى التسلح والتقوية وقت السلم ، اعتقاداً منها بأن « التسلح أفضى للحرب » وأن «القوى لا يحترم إلا القوى » فهى إن رغبت فى القتال والعدوان ، فإنما تتسلح وتتقوى حتى لا يطمع فيها ظالم ، ولا تسوّل له نفسه الأثيمة الاعتداء عليها ، فسلامة الدول مبنية على قوتها ، سواء أكانت فى وقت السلم أم فى وقت الحرب .

قوة الآلات :

وطموح الإنسان لا يقف عند حد ، وقد وجد أن قوته العضلية لا تكفى للحصول على النجاح ، فلجأ إلى العلم يستنبط منه مصادر جديدة للقوة ، وها هو ذا يستعمل الروافع والبكرات منذ عهد اليونان ، ويبذل بها قوة صغيرة لتحريك أو رفع ثقل كبير ، فإنه إذا استطاع رفع أى ثقل بقوته العضلية ، فإنه يستطيع أن يرفع عشرات بل مئات بل آلافاً مثلها بالروافع والبكرات والآلات ، حتى لقد قال أرشميدس العالم الطبيعى الأغريقى مرة « أعطونى مكاناً أقف فيه وأنا أحرك الدنيا » ، وقد عرض على مليكه هيرون ملك سرقوسة أساس الفكرة وجعله يحرك سفينة محملة ثقيلة بقوة صغيرة ، فسر منه الملك وقربه إليه .

ومنذ عهد أرشميدس والمخترعات تتقدم فى مختلف النواحى ، ومنها الناحية التى تزيد قوة الإنسان .

فى البناية الحديثة تستعمل آلات لرفع الأثقال التى يعجز الإنسان عن رفعها بقوته ، وهذه الآلة يسميها الناس (الونش) ، ترفع كتلة ثقيلة جداً من الحديد وتتركها تهوى من عل إلى الأرض فتدكها دكا ، وبتكرار هذه العملية يمكن إعداد الأساس المتين للبناء ، وتستعمل هذه الآلة أيضاً لنقل الحجارة والأتربة من مكان إلى آخر ، وفى البواخر المعدة لحمل الأثقال والسيارات

تستعمل هذه الآلة لرفع السيارات الثقيلة من الأرض، وتتحرك بها حتى تقف في المكان المعد في الباخرة لوضع السيارة فيه، وعندئذ نرى السيارة تتدلى حتى تستقر في مكانها المناسب، وكل هذا دون جهد كبير من الإنسان.

وهناك آلات أخرى اخترعها الإنسان على أساس علمي آخر، منها الجهاز المسمى بالمكبس المائي الذي يستعمل لكبس الأقطان، واستخراج الزيوت من البذور، وقد صنعت هذه الآلة بعد ما ثبتت قاعدة انتقال الضغط في السوائل، وذلك في سنة ١٦٥٣ حيث استنبطها العالم والأديب والفيلسوف الفرنسي «باسكال»، واستغلها العلماء من بعده في صنع كثير من الآلات منها المكبس المائي، وهذا مثال من أمثلة عدة تدل على البحوث النظرية التي يمكن تطبيقها في نواح عملية في الحياة.

المصعد الكهربائي:

ومن الآلات أيضاً ما هو مبني على أساس القوة الكهربية، منها المصعد الكهربي، فقد وجد الإنسان أن التعب يدركه عند ما يصعد في سلم مرتفع، إذ أنه يصعد مضاداً لقوة جاذبية الأرض، وهي قوة يصل تأثيرها إلى القمر، ولكنه عقل الإنسان القوي الذي يتغلب بعلمه وتفكيره على كل صعوبة تعترضه إذ لجأ في هذه الحالة إلى عمل المصعد الكهربي، الذي يتحرك بالقوة الكهربية التي سخرها الإنسان لمنفعته، فصار الإنسان بفضل المصعد يصعد إلى أعلى الطبقات في العمارات المرتفعة وناطحات السحاب الشاهقة، كل هذا وهو جالس في مقعده دون مشقة أو تعب، وما عليه إلا أن يضغط على «الزر» الدال على رقم الطبقة التي يريدها، فيتحرك المصعد، ويقف عند تلك الطبقة، كأن له عقلا يدرك به، أو بصيرة نفاذة تهديه سواء السبيل، وبحركة خفيفة أخرى يؤمر المصعد بالنزول فيطيع، ولا يعصي أمراً مهما تكررت الأوامر والطلبات، ولا يبدي ملالا أو كلالا، ولو اشتغل آناء الليل وأطراف النهار، فهو أطوع بل وأقدر من أي خادم أمين.

عصر الآلات:

وبالعلم أيضاً أصبح الإنسان يقطع أطول المسافات دون أن يلحقه تعب أو نصب، سواء أكان هذا السفر في الجو أم في البحر أم في البر، على متون الطائرات التي تشق عنان السماء، والبواخر التي تمخر عباب الماء، والسيارات والقطر التي تنهب الأرض نهبا، وبذلك سخر العقل البشري للانسان آلات كثيرة في مختلف النواحي والأغراض، فهذه آلات مبنية على الروافع والبكرات وهي ما تسمى الآلات الميكانيكية، وتلك آلات مبنية على قوة البخار، وهي ما تسمى الآلات البخارية، وأخرى مبنية على قوة الكهرباء، وهي الآلات الكهربية المستعملة في رفع الأثقال والنقل والحركة والتدفئة والإضاءة وغيرها، وهناك آلات مبنية لا على أساس واحد بل على أساسين أو أكثر، فمثلا قوة الريح وقوة الماء يمكن استخدامهما لتوليد الحركة أو لتوليد الكهرباء، ففي هولندا تستعمل الطواحين الهوائية، وفي الفيوم يستخدم سقوط الماء لتوليد الكهرباء للمدينة لشتى الأغراض، وهكذا نجد العلم قد سخر للانسان قوى عظيمة لخدمته، وتنوعت الآلات في عصرنا حتى لقد بلغ بالعلم أن صنع آلات حاسبة وثانية كاتبة، وثالثة ناطقة، حقاً إننا نعيش في عصر آلات.

(البقية في العدد القادم)

محمد عاطف البرقوقي
ناظر المدرسة التوفيقية

البـــــلاغة وعلم النفس

للأستاذ على العمارى

لعل علوم البلاغة أقل علوم العربية نصيباً من جهود الباحثين المعاصرين ،ولعلها كذلك أحوج هذه العلوم إلى التجديد والتهذيب ولـكننا نستطيع أن نقول — فى غير غض من عمل أحد — : إن الأبحاث التى طالعنا بها هذا العصر فى هذه العلوم دون ما كنا نأمل من علمائه الأعلام

ولقد شاع فى رسائل المعاصرين النعى على علماء البلاغة ، ورميهم بالجهل والتقصير أحياناً ، وهذه طريق لا تؤدى إلى الغاية. ولو أنهم إذ هدموا بنوا لـكان الأمل قويا فى أن نظفر بشىء . ومن حق أسلافنا علينا أن نذود عنهم ، وندفع مايلحق بهم من ظلم وجحود .

قرأت رسالة صغيرة للأستاذ الشيخ (أمين الخولى) المدرس بجامعة فؤاد الأول عنوانها (البلاغة وعلم النفس) . تحدث فيها عن صلة قديمة بين الأبحاث البلاغية ومظاهر النفس الإنسانية ، ولـكنه نعى على الأسلاف أنهم لم يربطوا بينهما على أن علم النفس علم من العلوم (مع أنه كان من معارفهم) ورأى أن هذا الربط فى الدرس وفى غير الدرس ضرورى ، بل هو ضرورى لفهم إعجاز القرآن وتفسيره حيث يقول (فالنظر الصائب إليه — يعنى القرآن — والفهم الصحيح له ، أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، فليس يصح أن تعلل عبارة من عباراته ، أو يحتج للفظ فى آية من آياته ، أو يستشهد لأسلوب من أساليبه إلا بوقعه كله فى النفس ، وبما كشف العلم عن هذا الموقع ، وما سبر من أغواره فبالأمور النفسية لا غير (كذا) يعلل إيجازه وأطنابه ، وتوكيده وإشارته ، وإجماله وتفصيله ، وتـكراره وإطالته ، وتقسيمه وتفصيله ، وترتيبه ومناسباته ، وماقام من تعليل هذه الأشياء وغيرها (كذا أيضاً) على ذلك الأصـل فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتمحل أو هوأشبه شىء به)

ونحن إذا طرحنا جانبا مناقضة الأستاذ لنفسه بين محاولته تعليـل إعجاز القرآن ، وبين إصراره على أن خير الآراء فى الإعجاز هو رأى السكاكى وجملته أن الإعجاز لا يعلل . إذا طرحنا هذا وجدنا الأستاذ انساق وراء الفكرة التى سيطرت على قلمه ، ولـكننا مع ذلك ننتظر حتى نرى مبلغ صـدق هذا من الأبحاث التى وعد بها الـكاتب وقد مر عليه دهر ولم يطالبنا بها وإن كنا نجزم بأن دعواه أن كل تعليل لأسلوب القرآن لا يقوم على أساس نفسى ادعاء وتمحل نجزم بأن هذه مبالغة لا تمت إلى الصواب بصلة .

ونترك هذه الدعاوى وأمثالها إلى حين يؤيدها بأمثلة لنرد على هذين المثالين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما فى رسالته ، وادعى فيهما أن القدامى وقفوا عند تعليلات جافة ركيكة ، ولم ينظروا فيهما إلى الأمر النفسى قط . وسنرى أن ما وصمهم به ليس صحيحا ، وأن ما ذكر أنه وصل إليه هو هو الذى ذكره علماؤنا الأجلاء قال : (نحن نقرأ مثلا فى بيان ميزه الأسـلوب المعروف عندهم باسم تأكيد المدح بما يشبه الذم قولهم : إن سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشىء ببينة ، ويفسرون ذلك بأن القائل علق نقيض المدعى وهو إثبات شىء من العيب بالمحال، والمعلق بالمحال محال ، فعدم العيب محقق . كما نقرأ لهم وجهاً آخر لمزية هذا الأسلوب هو : أن الأصل فى مطلق الاستثناء الاتصال فذكر أداته قبل ذكر المستثنى منه يوهم إخراج شىء مما قبلها فإذا ما أوليت الأداة صفة مدح وتحول الاستثناء من الاتصال إلى الانقطاع جاء التأكيد لـما فيه من المدح على المدح والأشعار بأنه لم يجد صفة ذم يستثنيها

ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر هو مافى هذا الأسـلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التى تـكسبه طرافة وتثير حوله تنبها »

والذى نلاحظه هنا أمور : —

(١) أن التعليل الأول أحد تعليلات لهم ويمكن إرجاعه إلى أمر نفسى ، بل هو فى الحقيقة من أخص أمور النفس ، فهو فـكر مرتب ، ومنطق محكم ، وليس شيئا ما رده به من أنه يترتب عليه أن «عبارة التوثيقات المؤكدة ولغة الإشهادات المسهبة هى الفصحى وأظن أن الفرق بين الاثنين واضح ، والمغالطة بينهما أوضح

(٢) أن المفاجأة التي تمدح بأنه وصل إليها إنما مأتاها انقطاع الاستثناء. وذلك أن النفس حين تسمع أول الكلام تنتظر أن أن يجيء آخره أليفا لأوله ويستقر فيها اطمئنان لذلك فإذا انقطع الاستثناء فوجئت بما لا تتوقعه.

(٣) أنهم ذكروا لهذا علة نفسية؛ قال في المطول بعد أن ذكر التعليلين السابقين « مع ما فيه من الخلابة وتأخيذ للقلوب » وفي هذه الكلمة الأخيرة (تأخيذ للقلوب) كل الرد على الباحث الفاضل المجدد !!

أما المثال الثاني فخيث يقول « ومن ذلك مثلا أنا نسمعهم يقولون أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ... الخ ثم لا يعللون شيئاً من ذلك كله إلا بالفكرة السابقة من تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم. أنه كدعوى الشيء ببينة ». ولعلنا نقف طويلا متعجبين من جراءة أستاذ في الجامعة، ورئيس طائفة تدعى التجديد في علوم البلاغة، حين نعلم أن صاحب الصناعتين عقد فصلا للموازنة بين الحقيقة والمجاز ذكر فيه أكثر من أربعين مثلا وعلل لكل مثال بعلة، وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم واحداً من هذه العلل، وأنه في أول الفصل علل تعليلا عاما بأمر نفسي فقال « وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في النفس نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة » فكيف يسوغ بعد هذا لأستاذ أمين في العلم أن يطرح هذا كله ليقول إن علماءنا لم يعرفوا تعليلا نفسيا واحداً؟ وهل يرى أن الباحث لا يكون بارعا معلاما إلا إذا ادعى أن الأوائل لم يتنبهوا لما وصل إليه؟

ولعلي أقضي على كل ادعاء إذا ذكرت كلمتين اثنتين تشهدان بأن علماء البلاغة لم يقتصروا على تعليلات ركيكة جافة، وإنما وصلوا في بعض الأحايين إلى اللباب المنتخب

(١) كتب ناشر كتاب أسرار البلاغة في مقدمته قال: « ينبغي لقارىء هذا الكتاب وصنوه دلائل الإعجاز أن يتأمل حق التأمل ما انفرد به الإمام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع — من قبيل العلوم الطبيعية كعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الفلسفة العقلية — لا بمجرد مواصفات واصطلاحات — فإنه يقيم الدلائل، ويسوق الحجج على كون البليغ من الكلام باشتماله على التشبيه والتمثيل والمجاز العقلي أو اللغوي من قواعد البيان، أو بمراعاة نكت المعاني في التعريف والتنكير والحصر والتأكيد والفصل والوصل وغير ذلك إنما كان بليغاً لأمور حقيقية في عقول الناس وشعورهم وتأثير الكلام في أنفسهم »

وهذا كلام صريح في أن علماءنا تنبهوا لهذا الذي أراد الأستاذ أن ينبهنا إليه، بل جعلوه أصلا تؤلف على ضوئه الكتب

(٢) قال الشيخ عبد القاهر يعلل بأمر نفسي هذا الأمر الذي ادعى الأستاذ أنهم لم يذكروا له تعليلا نفسيا « وإن أردت اعتبار ذلك — يعني تأثير التمثيل في النفس — في الفن الذي هو أكرم وأشرف (يقصد فن الوعظ) فقارن بين أن تقول: إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره، وتقتصر عليه وبين أن تذكر المثل على ما جاء في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه ... الخ

« فأما القول في العلة والسبب، ولم كان للتمثيل هذا التأثير وبيان جهته ومأتاه وما الذي أوجبه واقتضاه فغيرها »

« وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل، ويشرف ويكرم، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأنه العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا « ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة. وضرب آخر وهو ما يوجبه تقدم الإلف كما قيل ما الحب إلا للحبيب الأول.

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع، ثم من جهة النظر والروية، فهو إذن أمس بها رحما،

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٢١ —

الزواج والصدمة الأولى :

ونشر ملتن في مارس سنة ١٦٤٥ كتيباً آخر بعنوان « تترا كوردون » ، وفيه تعرض للفقرات الأربع الشهيرة المتصلة بالطلاق في الأنجيل ، وراح يفسرها أو يؤولها حسبما يذهب إليه من رأى في الطلاق ، وقد تعسف في ذلك ولوى عسراً شديداً ، في نفسه من الآراء مايخالف كثيراً مما ذهب إليه مفسرو الإنجيل الأقدمون ومن أخذ أخذهم من المحدثين ، وهو في الوقت نفسه يريد أن يستند إلى الإنجيل ويتخذ منه سلاحه .

ويجمع هذا الكتيب كما يجمع سالفه « قانون الطلاق ونظامه بين العبارات المنطقية الجافة العسيرة ، وبين الفقرات العاطفية البليغة التي يصل فيها ملتن إلى ذروة الجمال الفني في النثر حتى ليجعل ناقداً فذاً مثل مكولي يقرر أنه يصل من البلاغة في كثير من نثره هذا إلى ما لا يتقاصر عن مستوى شعره في أعلى نسق له . والحق أنه ملك ناصية البيان ، إذ عاد يصور في هذا الكتيب حال الزوجين منياً بالفشل في زواجهما . تجد ذلك في مثل هذا القول: « إنهما يعيشان كما لو كانا ميتين ، أو كما لو كان بينهما عداء قاتل ، وهما بعد في قفص معاً » ؛ وفي مثل قوله : « إن العقل الذي لايوافق عقولنا أبداً ، والذي هو دائماً على نقيض ما نذهب إليه ، إنما يسلمنا إلى حالة هي أسوأ من العزلة في أشد وحشتها » ؛ وفي عبارة كهذه : « هذا الحارس المخيف القائم على الباب لا يلبث وقد جر الرجال وأعقل من في الرجال ، وانتظمهم بخداعه القاهر في سلك الزواج الفاشل ، أن يغلق أبواب الجب عليهم ، فلا رجعة منه كما لا رجعة من القبر » . وفي مثل هذه الفقرة إذ يقول : « تعلق بزوجة ، ولكن على أن تكون زوجة ، لا أن تكون عدماً أو عدواً أو هاجرة تعتزلك ، أيمكن أن يبلغ قانون من البعد عن العقل كأن يدعوك لتتعلق بالكارثة والدمار والفناء ؟ »

وكما عرض ملتن طائفة من آرائه الفلسفية في كتيبه السابق، نراه يعرض هنا كثيراً من تلك الآراء ، وبعضها تكرار لما سلف والبعض جديد ، ومن أهمها رأيه في المرأة ، وفي فكرة الزواج الأولى كما أرادها الله ، وفي مبلغ قدرة القانون على منع الإثم ، وفي نصوص الكتاب المقدس كمرجع يتقيد الباحث به .

أما عن المرأة ، فقد كان البيوريتانز كما كان أتباع كلفن في أوربا يرون فيها مخلوقاً دون الرجل في كل شيء ، وأن الرجل هو سبب ما خلق الله من خلق ، وما خلقت المرأة إلا معيناً له ، فهو أنبل منها وأكرم؛ وكانت منزلة المرأة سامية في عهد الفروسية ، إذ كان من أشهر ما يتحلى به الفارس احترام المرأة والأخذ بيدها وإفساح مكان الصدارة لها في كل اجتماع ، ومخاطبتها بألقاب

وأقوى لنبيها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب ، إلى مايدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراءه حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقال : هاهو ذا فأبصره تجده على ما وصفت »

وبعد فنحن لايكفينا من معاصرينا أن يثلبوا الأقدمين وينوهوا بقصورهم وتقصيرهم ، ولكننا نريد أن يخرجوا لنا قواعد جديدة على الوضع الذي يريدون؛ وحينئذ نقول إنهم استدركوا على سابقيهم وأفادوا علوم البلاغة ، أما أن نسمع ونقرأ أن البلاغة معقدة ، وأن النحو قاصر ، وأنه كان يجب أن يدرك الأقدمون صلة البلاغة بعلم النفس ، وصلتها بالفلسفة ثم لا نسمع ولا نقرأ غير هذا فلا .

وما أحسن قول الشاعر :

تقولون أخطأنا فهاتوا صوابكم ... وكونوا بناة قبل أن تهدموا الصرحا

علي العماري
المدرس بمعهد القاهرة

التبجيل ، وإظهار كل ما يشعرها بالعزة ورفعة الشأن ، وكانت تقاس من لباقة الفارس وفروسيته بقدر ما يتفق له من النجاح في هذا كله ؛ ولكن البيوريتانز كرهوا الفروسية ، لأنها في رأيهم من صنع البابوية ومن مخلفات الكاثوليكية ، وكرهوا كل ما كان منها بسبب ، ومن ذلك مكانة المرأة في تقاليدها ، ولم يقتصر ما كان بين أصحاب الرؤوس المستديرة وبين الفرسان من خلاف على عداء الأولين للملك ، وولاء الآخرين له ، وتنابذ الفريقين لما يتصل بالدين من سبب ، وإنما كان الخلاف كذلك شديداً بسبب نظرة كل منهم إلى الحياة الاجتماعية ، وعلى الأخص مركز المرأة ، فقد ظل الفرسان الكاثوليك على ولائهم للمرأة والسمو بمكانتها ، بينما عمل البيوريتانز على العودة بها إلى ما قبل عهد الفروسية ، والنظر إليها كمخلوقة تخضع للرجل وليس لها إلا أن تعينه فيما يقوم عليه من شؤون الأسرة ، وأن توفر له أسباب الراحة ، وتكون له متعة ، وله دونها الرأي والقوامة ...

وحار ملتن بين المذهبين ، وتنازع عقله ووجدانه ، فلئن كان بيوريتاني المذهب يكره الكاثوليكية والقساوسة كرهاً شديداً ، فهو كذلك الشاعر الحر النظرة الواسع الأفق ، الذي عشقت روحه الحياة في ربيع العصر الاليزابيثي ، أو هو آخر الاليزابيثيين كما أحب أن يسميه بعض النقاد ، وما يستطيع أن ينظر إلى المرأة تلك النظرة الجافة المعبرة عن التزمت وضيق الأفق!

وهدته حيرته بعد طول النظر إلى أن يوفق بين منطق عقله ومنزع وجدانه ، فجعل للرجل المكان الأول في الأسرة والمجتمع ، ووضع المرأة في موضع دون موضعه ، ولكنه لم يقصر وظيفة المرأة على عونه والعمل على راحته ، وإنما جعل العلاقة بينهما علاقة مشاركة عقلية روحية قوامها المشاكلة بين العاطفتين مما يوثق أواصر المودة ويمكن أسباب السعادة بين الزوجين ، ولقد جعل مثل هذه العلاقة كما رأينا أساس الزواج ، وإلا كان الطلاق أمراً مقضياً ...

ويرى ملتن أن الغرض الأول من الزواج حاجة الرجل إلى صلته بالمرأة صلة جسدية وعقلية وخلقية ، فما يبلغا كمال إنسانيتهما إلا بهذه الصلة ، وما يتم أحدهما إلا بالآخر ، وما يكتمل بأس الزوجين إلا متصلين ، ولن يزال الرجل في عزلة موحشة مهما يحط به من الناس حتى يتزوج .

ويرجع إلى آدم فيفسر وصف الله سبحانه إياه بالوحدة في الإنجيل بحاجة إلى المرأة ، أو إلى الزوجة على الأصح ، يقول في ذلك : « يراد بقول الله « وحده » هنا أنه وحده بغير امرأة ، وإلا فإن « آدم » كان يحظى بجوار الله ذاته ، وكان يحيط به من الملائكة رهط يكلمهم ويكلمونه ، والخلائق جميعاً تبهج نفسه بما تجد وما تلهو ، والله قادر على أن يخلق له مما خلقه منه ألف صاحب ، وألف آدم له إخوة يصحبونه ، ومع ذلك كله دعاه الله حتى وهبه حواء وحيداً »

وإذا كان الرجل لا يستغني عن المرأة ، ولا المرأة تستغني عن الرجل ، فلا رباط يربط بينهما إلا الحب ، أي لا زواج إلا على أساس المحبة والمودة : « فالحب في ناحية إن لم يجد ما يشاكله في الناحية الأخرى ، ووجد نفسه يذهب أدراج الرياح ، إذ أنه لا محالة ذاهب في مثل تلك الحالة ، قد تبقى بعده الصلة الجسدية ، ولكنها لن تكون صلة مقدسة ولا طاهرة ولا مشاكلة لرباط الزواج ، إذ هي في خير حالاتها بعد ذلك لن تعدو أن تكون عملا حيوانياً بحتاً ، بل إنها أرذل في الحق وأحط مما يرى من ترفق أخرس بين قطعان الدواب والأغنام ، ذلك أن الروح هي قوام الأعمال الأعمال الإنسانية ، وليس للجسم في ذلك أثر يذكر »

ويرى ملتن أن مرد الفسق والشهوة الحيوانية إلى فقدان الحب والتعاطف وقصر العلاقة بين الرجل والمرأة على الجسد ونزعاته ، فإذا كانت العلاقة روحية قوامها الحب ، فلا فجور ولا فسوق في الحب ؛ ولذلك فالمثل الأعلى عنده لحياة الزوجين هو في تلك الأيام التي عاشها آدم وحواء قبل هبوطهما من الجنة ، فقد توشجت روحاهما وجسدهما ، فلا محل لإثم ولا داعي لطلاق ، فإنه متى وجد الحب فلا مكان لشهوة ، كما أنه إذا سيطرت الحكمة ، فلا داعي لقانون ...

ويتشكك ملتن في مقدرة القانون على أن يمنع الشر منعاً تاماً ، فما لم يسد العقل فلا فائدة ترجى من القانون ، وإنما يضيق القانون نطاق الشر نوعاً ما ويخفف ضراوته .

وتعظم جرأة ملتن إذ يتعرض للكتاب المقدس ، وإلى أي مدى يؤخذ بأحكامه ، فعنده أنه يجب ألا نأخذ بحرفية ما جاء

فيه ، لأنه كثيراً ما أول حسب مقتضيات الظروف والأزمان ، وتطرق إلى نصوصه الفساد ؛ وكان لا بد أن يذهب ملتن هذا المذهب ، وإلا فكيف كان يتخلص من قول كهذا ينسبه الإنجيل للمسيح : « إن من يقطع الصلة بينه وبين زوجته لسبب غير الخيانة ثم يتزوج غيرها ، فإنما يقترف خطيئة الزنا »

ويختتم ملتن كتيبه هذا خاتمة شاكية صاخبة ، فقد ساءه لقاء أهل عصره إياه ، وعلى الأخص البرسبتيريتز ، وهم من البيوريتانز الذين طالما وصل حبالهم بحباله ، وعلق في الإصلاح عليهم كثيراً من آماله ...

ونشر ملتن في نفس الشهر الذي نشر فيه كتيبه السالف كتيباً آخر سماه « كولاستيريون » وقد جعله للهجوم ، أو على الأصح لمدافعة تهجم بمثله ، واتخذ شعاره فيه قوله : « أجب الأحمق بما يشاكل حماقته ، وإلا صدق أنه حكيم فيما يتخيل من خيال »

وعاد ملتن إلى سهامه ، وإنها لبريشها الحنق واليأس من عقلية مخالفيه ، فرمى أحدهم بأنه من غير المتعلمين ، وأنه أقل من أن يعرف الإغريقية أو العبرية ، وأنه خنزير لم يقرأ شيئاً من الفلسفة ، وأنه جاء بآرائه عن الغاية من الزواج من حظيرة خنازير ، وأنه أحمق ماجن يحاول أن يحملنا على الضحك بلغوه ، وأنه حمار بلغ أقصى حماريته ، فما يبالي بشيء ... إلى غير ذلك مما لا يقل عنه سوءاً أو هجراً ... !

ولم يخرج ملتن من وراء صيحاته هذه بطائل ، فلا أجابه البرلمان إلى ما طلب ، ولا تركه البرسبتيريتز يدعو دعوته دون أن يمتنوه ويخرجوه من زمرتهم ، وهكذا بقي موضوع طلاقه ماري بوول رغبة فحسب ، لم تجد سنداً من قانون ولا عرف ؛ ولقد هدد ملتن بالخروج على القانون في كتيبه « تترا كوردون » بقوله : « إذا لم يتح لي القانون ما أريد ، فعلى القانون — كما يقضي العقل — أن يتحمل وزر ما يترتب على رفضه من عواقب ! »

وكان ملتن يتردد على سيدة تدعى « مرجريت لي » ، وكان يجد بين يديها مثل ما كان يتوق إليه من حديث عذب ومن ذكاء ولباقة لم تعرف زوجه شيئاً منها ، ولكنها كانت متزوجة ، وكان زوجها هو « كابتن هوبسون » أحد أصدقائه من أنصار البرلمان ، فهل حاول ملتن أن ينشئ علاقة روحية قوامها المحبة والمودة بينه وبين هذه المرأة ؟ ولكن ما غايته من مثل هذه العلاقة وهو لا يستطيع بالضرورة أن يتزوجها طالما أنها زوج لغيره ؟ لقد ظلت صلته بهذه السيدة مبهمة الغرض ، ولقد اختصها بمقطوعة من تلك المقطوعات الشعرية التي كان ينظمها الفينة بعد الفينة ، والتي كانت على قلتها وصغرها قصاراه يومئذ من الشعر ؛ وجعل عنوان هذه المقطوعة وهي الخامسة بين مقطوعاته والثانية منذ هجر الشعر « إلى السيدة مرجريت لي » ؛ وليس فيها ما ينم عن شيء في علاقته بهذه السيدة ، وإنما اقتصر الشاعر على امتداح أبيها والثناء على صفاتها ، ذاكراً أن ما عرف عن أبيها من الشرف والنزاهة والإباء ورثته ابنته ، فهو واضح جلي في خلقها !

ويتحدث ابن أخته فلبس فيما ذكر من أنباء حياته أنه تحبب إلى سيدة أخرى ، ورغب في أن يتزوجها ، متحدياً بذلك القانون — كما توعد من قبل ويقول « فيلبس » إنها كانت في أول شبابها ، فكانت رائعة الجمال ، حلوة الحديث ، على قدر من الذكاء عظيم ؛ ولكنها لم تجرؤ أن تتحدى الناس كما حاول ملتن أن يصنع ، وما كانت لتقبل أن تضع نفسها حيث لا تكون زوجة لا في عرف الناس ولا في قانون الكنيسة ، وإنما في شرع ملتن وحده ؛ ولعل هذه السيدة كما يظن المؤرخون هي موضوع مقطوعته الرابعة التي جعل عنوانها « إلى سيدة صغيرة فضلى » ، وقد أثنى فيها على طهر هذه العذراء وعفتها ونبل شمائلها ورجاحة عقلها ، وليس يعرف عن هذه العذراء ، وقد كان يطلق إذ ذاك لقب السيدة على العذارى ، إلا أنها كانت ابنة شخص يدعى الدكتور ديفز ، كما أنه لم يعلم عن علاقة ملتن بها أكثر مما ذكره ابن أخته !

على أن صلته بالسيدة مرجريت لي وصلته بهذه المجهولة الإسم قد انقطعت كلتاهما بإذعان ماري على غير توقع من أحد وقبولها العودة إلى زوجها !

وتمت عودة ماري على صورة أشبه بالقصة ، ولكنا قبل أن نأتي بهذه القصة على سردها نحب أن نتبين سبب عودتها ، وقد غابت عن زوجها منذ هجرته نحو عامين !

وماذا عسى أن يكون ذلك السبب ؟ أهو كما يقرر ابن أخته

قلق أهلها وقلقها مما نما إليهم من نبأ اعتزامه الزواج بغيرها ؟ أم هو أفول نجم الملك بعد هزيمة جيشه في معركة نسبي سنة ١٦٤٥ على يد المستقلين من أنصار كرومول مما يهيء لرجل مثل ملتن نفوذاً وجاهاً بحيث تطلب الحماية عنده ؟ أم يرجع ذلك إلى عسر آل پوول وقد أشرف على العدم مالهم ؟ ذلك كله كان خليقاً أن يجنح بأهل ماري إلى طلب الصلح !

ولم يعدم آل پوول أصدقاء يوطئون السبيل لهذا الصلح ، ولا عدم ملتن كذلك أصحاباً أسفوا لما آل إليه حاله وأخذتهم به رأفة شديدة !

وكانت ثمة قصة طريفة ، فقد أحضر بعض الصحاب من الجانبين ماري إلى منزل لأحدهم تعود ملتن أن يغشاه ، وخبأوها في حجرة ، حتى قدم فدخل حجرة مجاورة ، ولم يلبث إلا قليلا حتى دخلت عليه زوجته فألقت نفسها على قدميه باكية تسأله الصفح والمغفرة ، وهو لا يكاد يصدق عينيه من الدهشة ولا يدري من فرط حيرته ما ذا يقول ... !

وتوسلت إليه ماري متهمة أمها بما حدث ، ملقية كل تبعة عليها ، وكانت تتكلم كما لو تكلمت طفلة تبرئ نفسها مما نسب إليها ، والدموع تتساقط من عينيها على خديها قد ألهبتهما حمرة الخجل ، وفي جسدها كله رجفة شديدة رق لها قلب الشاعر ؛ ولبث برهة ينظر إلى زوجته تستغفره وتتوب إليه في ضراعة ومسكنة ، كما لو كانت تكفر عن خطيئة ، وفي وجهها سذاجة لا أثر للتكلف فيها ، فهي لم تزل من عمرها بعد في التاسعة عشرة ...

وأبت عليه أريحيته إلا أن يصفح عنها وعن أهلها ، فما تميل نفس كنفسه إلى التشفي من قوم حطهم الدهر من عل ، وأذلتهم الأيام بعد عزة كما تأبى على الفارس فروسيته أن يضرب خصما له هوى أو كبا به فرسه ؛ ولم يقتصر على الصفح كرمه ونبل عاطفته ، بل لقد آوى آل پوول في بيته جميعاً ومن بينهم أم زوجته التي ألقت بنتها على كاهلها كل تبعة ؛ وأسدى إليهم بذلك صنيعاً لا ينسى ، فقد سقطت فورست هل في يد أنصار البرلمان ، وطورد أنصار الملك ومنهم آل پوول فضلا عما حاق بهؤلاء من فاقة شديدة ... !

ولم يكن صفحه دليلا على نبله فحسب ، بل إن فيه شاهداً كذلك على شجاعته الأدبية ، فقد كان خليقاً أن يسخر منه الناس بعد أن أذاع فيهم من آرائه ما أذاع ، وبعد أن ادعى إنقاذ البشر جميعاً بما كتب ؛ وبعد أن اتبعه فريق من المعجبين به المتحمسين له ، ولكنه وقد تعود ألا يبالي بشيء في سبيل ما يؤمن أنه الحق صفح عن زوجته غير عابئ بما عسى أن يقول الناس !

ولقد ترك لقاء زوجته إياه على هذه الصورة أثراً عميقاً في نفسه ، فلا تكاد تقع عين القارئ على المنظر الآتي من مناظر « الفردوس المفقود » ، وقد كتبه ملتن بعد ذلك بعشرين عاماً ، حتى يحس قوة الشبه بين الصورتين . قال ملتن يصف لقاء بين آدم وحواء : «وجاءت حواء ودموعها لا تني تتساقط ، وشعرها تشعث كله ، فألقت نفسها متضرعة على قدميه واحتضنتهما سائلة إياه الصلح ؛ وظل هيكلها الساجي لا حراك به ، حتى أحدث أثره في نفس آدم ذلك الصلح ولده الاعتراف والندم ؛ وسرعان ما رق قلبه لها ، إذ ألفى بهجة حياته التي لا بهجة له بعد طول الوحدة غيرها عند قدميه في حزنها مذعنة خاضعة » !

واستأجر ملتن منزلا كبيراً غير الذي كان يعيش فيه ، يتسع لمن لا زال يعلم من تلاميذه ولزوجته وأسرتها ؛ وقنع الشاعر بحظه ، وعاشر زوجه ، لا كما طالما تاقت نفسه إليه من مثل ، ولكن كما شاء له القدر ؛ وفي يونيو سنة ١٦٤٦ صارت ماري أماً وصار ملتن أباً .. !

(يتبع)

الخفيف

مشروع مكافحة الأمية
على ضوء علم الاجتماع

للأستاذ فؤاد عوض واصف

في العـدد ٥٨٦ من « الرسالة » الغراء كتب الدكتور محمد مندور مقالا تحت عنوان « مكافحة الشكلية » ، أراد فيه أن يرد على بحث لنا في مشروع مكافحة الأمية درسناه من وجهة النظر العلمية البحتة ، ونشرته جريدة المقطم في العدد ١٧٢٥٤ ولم أشأ يومها أن أتولى الرد بنفسي على ما كتب الدكتور مندور مكتفياً في ذلك بما كتبه زملاء أفاضل ، هذا فضلا عن حرصي الشديد على أن لا يخرج الموضوع من مجاله العلمي إلى المجال السياسي . ولئن كان مشروع مكافحة الأمية كما وضعته وزارة الشئون الاجتماعية ، قد حظي بموافقة الغالبية الكبرى من الكتاب ، فإن معارضتنا له لم تخرج عن كونها دراسة علمية منزهة للمشروع ، كما ذكرت جريدة الجورنال ديجيبت في عددها الصادر بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٤ بعنوان « مكافحة الأمية ، هل تأتي بثمارها ؟ »(١) .

ولقد طلب إليّ الكثيرون ، وقد توليت بمفردي معارضة مشروع مكافحة الأمية بصورته الحالية ، أن أعود إلى الكتابة في هذا الموضوع الخطير ، ولا سيما وأن الاهتمام به الآن كبير .

يتلخص ما ذهبت إليه في بحثي ، في هـذا السؤال « هل التعليم سبيل إلى الحضارة ، أم أن الحضارة سبيل إلى التعليم ؟ » .

هل المدرسة هي التي تتقدم بالمجتمع وتلبسه ثوب الحضارة الحديثة ، أم أن المدرسة ظاهرة من ظواهر الحضارة ، ووسيلة مبتدعة من وسائلها تتأصل بواسطتها جذورها وتمتد فروعها ؟

إن دراسة التاريخ ، وهو معمل علم الاجتماع ، تدلنا على أن المدرسة في تاريخ الحضارات تأتي متأخرة بعد أن تكون الأذهان قد تهيأت لها ، وبعد أن تكون الشعوب قد نالت من المدنية حظاً ؛ لم تكن المدرسة في يوم من الأيام وسيلة من وسائل التحول الحضاري في شعب متأخر ، ولم يكن قبس العلم في عصر من العصور نوراً هاديا لشعب لم ينل حظاً من الحضارة والمدنية . وهذه فرنسا أم المدنيات كما يقال في العصر الحديث ، هل كان مونتسكيو وڤولتير وجان جاك روسـو هم الذين خلقوا الثورة الفرنسية — ثورة الحضارة الحديثة — بتعاليمهم ومبادئهم ؟ . إن هذه التعاليم والمبادئ لم تكن في الواقع إلا تفسيراً لما كان كامنة في الشعب الفرنسي الثائر . لم تكن الثـورة الفرنسية لتولد ولا كان للتعاليم الحديثة من يرجع صداها ، إذا لم يكن الشعب الفرنسي قد تنبه بعد إلى معاني الحق وارتقى وعيه الجمعي .

ولكن لما ذا نذهب بعيداً ، وأمامنا التاريخ المصري الحافل؟ عند ما أراد ساكن الجنان محمد على أن ينشيء المدارس ويعد المتعلمين ، هل نراه قد صادف في عصره نجاحاً ملحوظاً ، وهو الذي ابتدع في وسائل الترغيب للتعلم ما ابتدع ، فكان يدفع للتلميذ راتباً شهرياً ويتكفل بكل نفقاته ؟ ... لقد كان هرب التلاميذ من المدرسة هروب الرجال من الجندية . وأما الآن وقد بلغ الوعي الجمعي في المدنية المصرية ما بلغ ، فإن الشكوى لترتفع طالبة زيادة المدارس ، فلا تفرض المدرسة فرضاً « وإنما ترجى رجاء » .

وذلك هو الوضع الحقيقي للمشكلة . ليست المدرسة هي التي تتقدم بالمجتمع وإنما المدرسة ظاهرة من ظواهر المجتمع المتقدم

وما هو المجتمع المتقـدم ؟ ... إنه ذلك المجتمع الذي يهيئ بنفسه وسائل نموه الحضاري ، هو ذلك المجتمع الذي إذا فتحت فيه مدرسة لم تكن فرضاً عليه بل تكون تحقيقاً لرغباته وطلباته ، وإذا نودي فيه بالإصلاح ، لم يكن نداء أجوف بلا صدى ، بل يكون فيه المنادي لسان من ينادي...

وليس الفلاح المصري أمياً لأنه محروم من مدرسة ومن مدرسين ، أولأنه يعوزه القانون الشديد ليخرجه من حيز الجهالة ، بل هو أمي لأنه لم يبلغ بعد في حضارته الدرجة التي يكون فيها عقله مهيأ لقبول العلم . واليوم الذي يبلغ فيه الفلاح المصري هذه

(١) La lutte contre l'analphabetisme portera-t-elle ses fruits

الدرجة لن يعوزه قانون يعهد أو سلطة تهدد ، بل يندفع إلى طلب العلم من تلقاء نفسه .

أما والفلاح المصرى لم يبلغ بعد الدرجة التى يكون فيها عقله مهيأ للعلم بدليل إخفاق التعليم الالزامى الإخفاق الذريع على رغم ما يكلفه من مئات الألوف من الجنيهات ، فإن القانون سيخفق والدرسة ستغلق وتلك الأمانى العراض لن تتحقق .

إن الأمية فى الفلاح المصرى ظاهرة طبيعية تتحول مع التحول الطبيعى للفلاح ، وتظهر أو تنمحى تبعاً لما يبلغه الفلاح من الارتقاء فى سلم الحضارة . وليس فى الإمكان أن يقضى قانون وضعى على قانون طبيعى . وليس فى الإمكان أن يقضى قانون مكافحة الأمية الوضعى على قانون الأمية الطبيعى اللازم لحالة الفلاح الحضارية .

إن رسالتنا هى أن نبلغ بفلاحنا ذروة الرقى ، وأن نجعل بين القرية والمدنية تكاملا من حيث درجة الحضارة ، ولن يكون هذا بفتح المدارس وإعداد المدرسين بل بالاتجاه إلى الفلاح نفسه ، فإن المدرسة ظاهرة من ظواهر ارتقائه فحسب .

علينا أن نبذر بذور الحضارة فى الفلاح المصرى ، بأن نعجل من قوانين نموه الطبيعية . إن للمجتمعات فى نموها قوانين ليس فى طاقة الفرد أن يثيرها ، وإنما فى طاقته أن يتدبرها ويعجل من مراحلها ، فهى أشبه شيء بقوانين نمو الأفراد ، ليس فى طاقة أحد أن يثب بالطفل إلى مرحلة الرجولة دون أن يمر بأدواره الطبيعية . والذين ظنوا أن فى قدرة الفرد أن يخلق ويبدع فى المجتمع مخطئون ، فإن دور الفرد أو دور المصلح فى الحياة الاجتماعية دور ثانوى لا يعدو أن يكون تدبراً وتوجيهاً .

كل ما علينا إذاً هو أن ندرس الفلاح وأن نتدبر قوانين نموه ثم ندفع به إلى الأمام فى طريقه الطبيعى .

والواقع أن الفلاح المصرى يتقدم ببطء ، إذا قارناه بأمثاله فى هم أوربا وذلك يرجع إلى عاملين :

١ — العامل الاقتصادى .

٢ — العامل التكوينى .

والواقع أن العامل الاقتصادى فى رأينا نتيجة للعامل التكوينى ، لأننا نميل إلى القول بأن الحياة الاقتصادية من خلق الانسان ، وليس كما يقول كارل مارك أن الإنسان من خلق الحياة الاقتصادية فى تطوره الحضارى .

لقد اصطلح علماء الاجتماع على تقسيم عقليات المجتمعات إلى نوعين : النوع الأول يعرف بالعقلية السحرية ، والنوع الثانى يعرف بالعقلية الوضعية ؛ والنوع الأول من العقليات سمة الشعوب المتأخرة ، والنوع الثانى سمة الشعوب المتحضرة . ولا بد لكل مجتمع من أن يمر أولا بالمرحلة السحرية وأدوارها ، ثم ينتهى إلى المرحلة الوضعية .

أما المرحلة السحرية فى المجتمعات فتتميز بتفشى المعتقدات الشعبية وعدم التميز الواضح بين سبب ومسبب حتى تكاد الظواهر كلها تختلط وتنسب إلى قوى غامضة ومجهولة . والارتباط المنطقى يكاد أن يكون معدوماً فى عقول الناس فى هذه المرحلة ، فالمرض يرجع إلى قوة غامضة قد تكون الزار فى أغلب الأحايين وما إلى ذلك مما يدل على تفكك الرابطة المنطقية فى العقول ، أما المرحلة الوضعية فعكس ذلك تماماً ...

وواضح من هذا أن الفلاح المصرى لا يزال فى المرحلة السحرية ، وعلينا إذا أردنا له تقدماً أن نعجل مرحلة الانتقال من الحالة السحرية إلى الحالة الوضعية .

ذلك هو العامل التكوينى ، فعلينا إذاً أن نعمل على أن يبلغ فلاحنا المرحلة الوضعية بكل ما أوتينا من مجهود ، فذلك هو السبيل المنشود ...

ودراسة التاريخ تدلنا على أنه حيثما وجدت الآلة انبثقت الحضارة ، ذلك لأن للآلة أثرها فى عقلية من يمارسها ، إنها تطبع العقل بالطابع الوضعى ، طابع القانون الذى يربط بين سبب ومسبب ... فالآلة تدور ، ولكنها تدور وفق نظام متماسك لا يلبث أن يتكيف به عقل من يمارسها ، ومن هنا لا تكون رسالة الآلة رسالة إنتاج بقدر ما هى رسالة عقليات وحضارات .

تدور الآلة ، فلا يلبث التفكير الفلك أن يتماسك ، ذلك لأن من طبيعة الانسان أن يدرك بالفكر ما يعمل باليد والآلة تقتضى نظاماً وقانوناً يلمسه عامل الآلة باليد ويشاهده بالعين فلا

يلبث طويلا حتى يدركه بالفكر ، ويصبح القانون والنظام من طبيعة تفكيره ؛ لقد سبق الانسان العامل (Homo Faber) الانسان المفكر (Homo Sapiens) فى أدوار التاريخ كلها ، وما الصيغ والرموز التى يصطنعها الفكر فى الواقع إلا تجريدات لوقائع ملموسة باليد ومشاهدة بالعين .

نحن إذاً ننشد العقلية الوضعية كخطوة أولى من خطوات الإصلاح ، وليس من سبيل إلى تحقيق هذا غير الآلة . ولسنا نعنى بذلك أوضاع الصناعات الضخمة والآلات العظيمة مما قد لا يتيسر لنا الآن ، وإنما نعنى من الآلة صغرت أو كبرت كمعنى النظام والترابط والقانون . وإن فى قدرة الصناعات الزراعية البسيطة تحقيق ما نرجوه ، وهذه الدانمارك ، تلك البلاد الصغيرة لقد حققت حضارة عظيمة تعد من أرقى الحضارات الأوربية على أساس هذه الصناعات الزراعية البسيطة .

كان مشروع مكافحة الأمية مصيره الاخفاق لأن الأرض لم تعد ولم تعبَّد بعد . وإنما السبيل إلى تحقيق هذا المشروع هو إيجاد العقلية الوضعية ، عقلية الحضارة والمدنية التى تلتمس سبل التقدم فى مجال العلم .

والذى يدلنا دلالة قاطعة على أن الصناعات تهيء العقل الجمى لطلب العلم والاستزادة منه ذلك الاحصاء الذى يدلنا على أنه فى سنة ١٥٠٠ م لم يكن أكثر من ١٠ ٪ من شعوب أوربا الغربية حاصلين على قدر من الثقافة . وفى سنة ١٧٠٠ م ارتفعت النسبة قليلا حتى إذا جاءت سنة ١٨٠٠ م ، وظهرت المنتجات الصناعية فى أوربا بلغت نسبة المتعلمين نحو ٧٥ ٪ ؛ أى أنه فى أقل من قرن واحد ارتفعت النسبة بمقدار ٦٥٪ (١) .

وبمقابلة بعض البلدان الصناعية بغير الصناعية يتضح مقام نصيب الصناعة فى تهيئة الشعب لقبول التعليم نتيجة للعقلية الوضعية .

ففى كل من المملكة المتحدة (بريطانيا) وألمانيا واليابان لا يوجد غير ١٪ لا يعرفون القراءة والكتابة . وفى أمريكا ٦٪ وفرنسا ٨ ./. وبلجيكا ٩ ./. وجميعها من البلدان الصناعية .

(١) Changing culture and changing governments : H . Rugg .

أما فى البلدان التى لم تتقدم فيها الصناعة فالأمر يختلف عن ذلك . ففى أسبانيا ٥٤ ./. وفى الهند ٩٠ ./. (١) الخ .

من كل ما تقدم نستطيع أن نستخلص ما يلى :

١ — أن الحضارة تولد قبل أن يولد التعليم وما التعليم فى الواقع إلا أداة للحضارة تستغلها لاطراد نموها وسموها .

٢ — من أكبر العوامل التى تلد الحضارة نشر الصناعة وظهور المنتجات الصناعية لما يستتبع ذلك من تكييف عقلية الشعب بالقالب الوضعى الحضارى .

٣ — الظواهر الاجتماعية وفيها ظاهرة الأمية لا يمكن القضاء عليها بقانون لأن لها مراحلها الخاصة وعواملها الخاصة .

ليس إذاً لب المشكلة فى أمية الفلاح ، وإنما فى حالة الفلاح العقلية ونصيبها من قبول العلم .

فؤاد عوض واصف
ليسانسيه فى العلوم الفلسفية

(١) Ibid

القمر ...!

للأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي

قلبان فى نورك الهيمان يا قمرُ   هاما ، وبينهما الأشواق تستعرُ
يسترجعان الليالى بعد ما غبرتْ   وقد تولى الندامى، وانطوى السمر
وهوَّم الصمت إلا خفق أجنحةٍ   من الشعاع هى الأطياف والذكَر
وعُطِّلَ النايُ بعد الصدح واحتبست
فيه الأغانى ... فلا شادٍ ولا وتر
وأغفَتِ الطيرُ فى أعشاشها ، وصحَا
من حولنا نسمٌ يندى به الزهَر
وأرهف الليل للقلبين مسمَعَه   قلبٌ قريرٌ، وقلبٌ كاد ينفطر
يشكو الجراح لعل النور يُبرئها   فلن يُضَمِّدها إلاك يا قمر

قلبى الذى بات يصلَى منك جمرته   وقد حبتْهُ بلذع دونَه سقر
قلبى فراشتك الحمقاء قد جهلتْ   بأنها فى سناك الحلو تنتحر
ترودُ فى نورك الرقراق مصرعها   والحبُّ أقتلُ ما يرمى به القدر
قلبى تُخادِعه أنوارُك انبثقتْ   ذكرى تعود مع الماضى وتنحدر
يسرى مع النور سَبْحاً فى جداوله
حتى يكفكف من أضوائك السَّحَر
صديانُ والنورُ يُروِى فيه غُلّته   فليس ينقعها نبع ولا نهر
هيمان... والنورُ فى واديك يا قمرُ   لحقق الحلم لا يُبقى ولا يذر
وقَصَّ من سور النجوى ملاحمها   لعل تُجدى لديها هذه السُّور
أقضى الليالىَ أنات مُردَّدةً   والشاهدان علىَّ النجم والسهر
علْ الأمانى التى ولت براجعةٍ   مع الربيع فيزهو روْضى النضر
وأصطفى مجلسى فى العشب أعمرُهُ   وقد تقادَم فيه العهدُ والأثر
أقتاتُ زهر الربيع البكر مؤتلقاً   بالنور حتى يكاد النور يُعتصر
أُسقاه خمراً صَفَتْ فى كرمها وزعت
دُرِّيَّةَ الكأسِ يخشى لمحها البصر
يا طالما بتُّ أحسوها فإن فرغت   كأسى ففى عينها خمرٌ هى الحوَر
يا ليلة النور فى السفح الظليل هنا   هل ترجعين بما قد كنتُ أدخر
وما ادخرت سوى لقيا ضننت بها   هنا ، وكاد يحن الرمل والحجر
فلن سمحتِ بها نِلنا أمانينا   فليس ثَمَّ سواها منكِ ننتظر

فلسطين!

للأستاذ كمال النجمى

علت صيحة كالرعد دوّى هزيمُها
تحامى صداها واتقاهُ غريمُها
أَلَمَّت بأسماع الطغاة فزُلزلت   وخزَّ قلوبَ المؤمنِين أليمها
هفت من فلسطينٍ إلينا فنبهت   نياماً قلاها كهفُها ورقيمها
وسالت لها منا حُقودٌ قديمة
على الغاصب الباغى بجيش كظيمها
لقد جحد الباغى فلسطينَ حقَّها
وأسرف فى جور عليها ظلومها
لها الله من مهضومة غِيلَ أمنها
وحال عذاباً خفضُها ونعيمها
تقاعس عنها حين ضِيمَتْ وليُّها
وأسلمها للحادثات حميمها
وكان لها فى الشرب لولا جودهم   حسام إذا ما اهتز ريعَ خصيمها
بنى يعرب تدعو فهلا أجبتمُ   سليبة حق أثخنتها كلومها
أبوتكم ترنو لكم من قبورها   وتدعوكمُ أمجادها وقرومها
همُ جاهدوا فى الله حتى توطدت   ديارهمُ أمناً وقرت تخومها
مضوا فى الدنا شرقاً فأسلم فرسُها   وساروا بها غرباً فسلم رومها
لهم ذكريات يعبق المسك إن سرت
ويذهبُ بالألباب سكراً شميمها
فسيروا على هَدْى الجدود فإنهم   سمواتُ حقٍّ لا تغيب نجومها
دعتكم فلسطين وقد ضاق سجنها   وزاد أساها قيدها وشكيمها
وحلت بها من وعد بلفور ظلمة   من الليل يُعمى المبصرين بهيمها
مرابعها الفيح الضواحك أصبحت
يهيج الشجونَ الكامنات وجومها
حدائقها نهب الذبول زهورها   .وأشجارها نهب الرياح هشيمها
تبكّى الغصونَ الذاويات طيورُها
ويرثى الورودَ العاطراتِ نسيمُها
فأضحت وقد كانت مناظر جنةٍ   تهيج دموعَ الأوفياء رسومها

لغات الكتابة ...

عظمتها في رصانتها ووقعها الموسيقى

للأستاذ نصيف سركيس

ترهف الآذان لكل صوت شجى ، وتنجذب العواطف شطر النغم الوسيقى ، وتخضع القلوب مأسورة لألحان الجرس التوقيعى .

وهكذا الطبيعة فى جمالها ورونقها ، فى صخبها وسكوتها . فى عبوسها وضحكها ، فى إشراقها وحلكتها ، فى تغيراتها البديعة الفاجئة إنما تبعث فى النفس الحب والهيام وتشع فى الروح الفتوة والكمال .

الطبيعة برعدها القاصف ما هى إلا نذير خطر يهلع له قلوب البعض وتقشعر له أبدان الآخرين .

والطبيعة فى تغاريد طيورها وحفيف أشجارها ما هى إلا وحى عطوف يستمد الشاعر منها إلهامه ، ويعب الكاتب منها لخيلائه ورواءه .

فإذا كان الكاتب ملهما ، وله من الحواس النشطة ما يحمل إلى خبايا الاب من الداخل كل صورة لطيفة وطابع جميل فهو يعيش فى نماء هذه الحياة يعبر إذا ما كتب عما يخالج نفسه ، ويجول فى فؤاده من تلك المناظر الطبيعية الخلابة ، وأما إذا كان لا يعبأ بما يحوط به من أجواء ولا يحاول أن يستلهم من الطبيعة مادة لقلمه فهو جاف الشعور فاتر الاحساس مبتور القول والخيال .

فالطبيعة تنشد الموسيقى ، وأنغامها تهتز لها الأجواء وتترنح لها دوحات الأشجار وترقص لها الطيور . والإنسان بفطرته تستهويه هذه الأنغام ، وتملك عليه ناصية رشده ، وزمام عواطفه فإذا قرأ رسالة منسقة ، منسجمة فى مقاطعها ونبراتها ، تاه فى خيلائها ، وأخذ ينشط فى تلاوتها وحذقها . وقد لا يهدأ روعه وتخمد ثورة جشمه فى بعض الأحايين إلا إذا أعاد قراءة هذا المقال مرة ومرتين . فإذا مابلغ قصده من قراءاته المتكررة يكون عقله الباطن قد اصطفى ما راق لذوقه وعذب لنفسه . فلا يشعر بعد ذلك وهو فى خلوته وكتاباته إلا مكرراً لبعض ما استساغه ، وقويت ذاكرته على استخلاصه .

كل ذلك وهو فى نشوة من الفرح والارتياح ، وكل ذلك وهو على يقين بأن قبس ذلك النور الذى أشرق على خيلائه وذاكرته إنما هو راجع إلى ذلك الأسلوب الوسيقى المذب .

فللاتساق والجرس وقع فى النفس عظيم ، وللجرس فى توقيعه وأنغامه ما يجذب لب القارئ ويستهويه . وإذا ما تم ذلك توطدت لنا الدعائم الأولى ، والتى نعمل على أساسها فى إيثار كاتب على آخر .

هذا ويدلنا علم النفس على أننا نذكر دائماً كل حسن وجميل وأنه يعلق بذاكرتنا كل نغم لطيف بخلاف الأقوال المبتذلة التى تلوكها الألسنة بين حين وحين ، فإنه كثيراً ما يعاف القارئ تلاوتها وتأنف النفس توفير أسباب النشاط لاستيعابها وصونها . فإن غلب على القارئ الأمر ، وأجبر على النظر إلى مقال من هذا الطراز إنما يخرج منه وقد ألفى نفسه يرغى ويزبد لما لحقه من النكد وسوء الطالع لتصديع النفس بقراءة كلمات مرصوصة نابية ، لا تنم على حسن ذوق أو فصاحة بيان

هذا ولا يحتاج الكاتب إلى استهداء العبارات السلسة ذات الجرس الموسيقى واستنداتها فهى تأتى مع السليقة والمران ؛ تأتى

بنى يعرب حان التأهب فاشحذوا عزائمكم حتى يصح سقيمها
وكونوا كما كان الألى أنجبوكمُ نفوساً كباراً واسعاتٍ همومها
إذا اتسع الهم العظيم حملنه وقمن به حتى تضيق جسومها
فلسطينُ بابُ البيت روّع أمنها وديس وأنتم تنظرون حريمها
فلا توجلوا من موتة ليس بعدها سوى جنة فيحاء طاب نعيمها
ولا تطلبوا بالقول حقاً مضيماً
فبالسيف يسمو للعلى من يرومها
لقد سفرت إنكلترا وحليفها بأوجه مَينٍ كالجليد أديمها
وخلفهمُ الشذّاذ من كل بقعة نفت لؤمهم حتى استراح كريمها
سنقسو ذياداً عن حقوق بلادنا وننشدها حتى يُرَدَّ هضيمها
ليعلمَ جزّارُ الشعوب بأننا ضراغمُ غاب لا تلذ لحومها

مع القراءة لفحول الكتاب ونوابغ الشعراء ، وهى بهذا تأتى محمولة على الطبع غير متكلفة .

وهذا ولاشك يعد أعلى درجات الكلام . فإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها .

والألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر . فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة ، وما مثال الكاتب الذى لا يشعر بوقع أنغام العبارات الشجية فى أعماق قلبه ويجرسها الموسيقى فى صميم فؤاده إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة ، وبين صورة فتاة هيفاء فاتنة الجمال ذات وجه مشرب بالحمرة ، وخد أسيل وطرف كحيل ، وثغر فاتن ، وقد مياس .

فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه . فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين الألفاظ المجوجة العادية والألفاظ المنتقاة الموسيقية ، ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام . فإن هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

يقول « أبركرومبى » ولا بد للأديب أن يعرف كيف يجمع فى فنه كل ما احتوته الألفاظ من قوة التعبير والتصوير ، وكل ما من شأنه أن يساعد على التوصيل بحيث يستثير الخيال ، ويصرفه كيفما شاء . ويجب أن تكون الألفاظ قوية التعبير لكى تستطيع الإبانة عن تجارب المؤلف المراد توصيلها وتفهيمها ، كذلك يجب أن تكون الألفاظ صالحة لأن تحكى تلك التجارب وتصورها بصور واضحة .

أما التشبث بأهداب الالف والدوران ، والقول بأن السهل الممتنع هو أسمى أنواع الكتابة ؛ هو فى ظاهره قول فصل لا يعتوره لبس أو إبهام . ولكن هل كل مبتذل ... سهل ممتنع وهل كل أسلوب دارج أقرب إلى لغة التخاطب منه إلى لغة الكتابة هو بيت القصيد ؟

نعم إن الجمال سهل معجب ، ولكنه سهل على من ؟ ! وبعد ماذا ؟ ! على الذين يقدرونه ويحبونه ، وبعد الخبرة والمارسة والتذوق والتهذيب ، فليس معنى السهولة فى جمال الفنون أنه رخيص مباح لكل من يرمقه بجانب عينه ، ولا أنه غنى عن التأمل والتفكير . ولكن معناه أنه سهل سائغ لمن يستعد له استعداده ، ويبذل فيه ثمنه . وكذلك الثمرة الشهية سهلة سائغة لمن يشتريها ويغرسها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تمطر من السماء وتطرح على التراب أو تنمو كما ينمو نبات السحر .

ولو كان الغرض من اشتراط السهولة فى الجمال أن يكون سهلا على كل من يطلبه وبلا تفاوت فى الدرجات والمواهب لما كان فى الكتابات رسالة واحدة جميلة ، أو حقيقة بأن توصف بالجمال ، فإن كتابات شكسبير سهلة على بعض القراء ، ولكنها من الألغاز والمعميات على أناس آخرين ، وإن هؤلاء الآخرين قد يطيب لهم أساليب بيرون ، ولكنه إذ اقرئ على من دونهم من الفطنة والشعور عافوه واستثقلوه أو كابدوا فى فهمه الصعوبة التى تنفى صفة الجمال ، وهكذا إلى أن تهبط إلى طبقة تستصعب شعر هؤلاء جميعاً ، ولا تجد السهولة الجيدة إلا فى الأزجال الغثة والأناشيد الوضيعة ، وما فى منزلتها من الأساليب المبتذلة الركيكة. فإذا جعلنا السهولة ميزاناً لنا فى الفنون ، واتخذنا الشيوع عنواناً على السهول ، فقد نمادى فى ذلك حتى يصبح لثغ الأطفال فى عرفنا نماذج البلاغة العليا ، ثم تنحدر البلاغة سفلا حتى تنتهى إلى فحول الشعراء وأئمة الكتاب والفصحاء .

فلا صحة إذاً فيمن يقول بأننا نعمل على تقديس القديم واستساغة ألفاظ العهد الغابر ذات الجرس الموسيقى ، والذى لا يتمشى مع روح العصر ومستلزماته ، فما هذا إلا محض افتراء وقدح معيب توصم به لغة البلاد الراقية النفيسة . فالكتابات المبتذلة العادية والتى أحل عليها حملى الشعواء لا يمكن أن تجد دفاعاً عنها فى عتنا الحاضر بعد أن تتفاوت الأذهان والعقليات فى الحكم على ما يدعى من الكتابات بأنها سهلة فصيحة أو سهلة ممتنعة

وهكذا فالكلام يحسن بعذوبته وجزالته ورصانته مع سلاسته ونصاعته . وإذا اشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب

فقبله ولم يرده ، وعلى السمع المعيب فاستوعبه ولم يمجه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع . وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه وينفر عما يضاده ويخالفه ، والفهم يأنس من الكلام رقيقه وعذبه ، وينقبض عن الوخم ويتأخر عن الجافي الغليظ ولا يقبل الكلام المبتذل

وليس هذا هو الشأن في إيراد المعاني . ولكن المعاني يعرفها الجاهل والعالم والكاتب الحصيف ذا الخيال الرائع والكاتب الناحل من كل ذوق وبراعة . وإنما الشأن هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك .

ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة والكنايات الرايقة ما عملت لإفهام المعاني فقط وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وغريب مبانيه على فضل كاتبه وفهم منشيه .

وقد قال عبد الكريم الموصلي في كتابه « المثل السائر » :

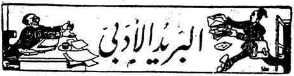
« إن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه إلا بشيء يسير وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار في الأتيان بالمعاني حتى ان بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول » .

لا شك أن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا فإذا كان المعنى سبيا ورصف الكلام رديا لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ورصف الكلام جيدا كان أحسن وقعا وأطيب مستمعا . فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ويحلى جيدها برنين الجرس الموسيقي وما يحمله ذلك من وقع جميل إلى حبات القلوب .

لا بأس بعد هذا من أن أكرر القول بأن لكل مقام مقالا وليست وظيفة الكلمات في الأدب كوظيفتها في العلوم . هي في الثانية وسيلة لتفهم الأسرار العلمية فهي شيء كمالي بالنسبة للفكرة ولكنها في الأولى جزء لا يتجزء من النص الأدبي . فالأدب يستعمل اللغة استعمالا كاملا ويستغل كل قيمتها من جمال وتأثير ومعنى ، ولا يستطيع أن يسقط الألفاظ من حسابه كما يفعل العلم أحيانا ، واللفظ في الأدب لا يكون مجرد تصوير للفكرة وتأدية للمعنى، فأن الرنين الذي يصحب العبارة أو الفقرة يساعد على الابتداع ويخلق في ذهن المستمع جوا لا تقل قيمته الفنية عن إفادة المعنى .

فإذا أحطنا علما بمزايا تلك اللغة الرصينة ، وأيقنا أن زمامها مسلس لنا ، فنعدوا بها ونكبحها كيفما شئنا وكلما دعت الحال إلى ذلك . وإذا سلمنا بوقعها في النفس وإيثار العاطفة الإنسانية لها دون غيرها فلا يكون بدعا بعد ذلك إذا ما وقفنا بها قدما وجعلنا منها نورا للهدى وينبوعا للكمال ، فهي التي لا يفتر لها إشماع ولا ينضب لها معين .

نصيف سركيس



. . . وكفى !

كان فى تركيا رجل ماجن سكير ما يكاد يفيق ، اسمه بكرى مصطفى فضاقت به سبل العيش مرة حتى ما يجد ثمن الكأس من الخمر . ففتقت له الحيلة أن أطال لحيته وكبر عمامته ، وذهب إلى الأناضول فسعى حتى جعلوه إماما للمسجد وواعظا للقرية …

وكان يسير يوما فرأى جنازة ، فأمر بها فوقفت ، وأنزل النعش ، فانحنى عليه كأنه يساره ثم قال : ارفعوها وامشوا ، فسأله بعض خواصه ، ماذا قال لها ، فقال :

— قلت للميت ، إن سألوك فى الآخرة عن أحوال الدنيا ، فلا تطل الحديث ، قل لهم صار الإمام بكرى مصطفى . وكفى !

***

ونحن إن سئلنا ما حال الأدب اليوم ، نقول :

إنه صار بين كتاب الرسالة ، نعم الرسالة ، من يعرض الكتب على (وفيات الأعيان) فيضحك عليه كما ضحك على كتاب (الأدلة القطعية على عدم دوران الكرة الأرضية) مغرقاً فى الضحك (لأن مؤلفه) ولم يدر (حضرته) من مؤلفه (لم يجد ما يكتب عنه إلا أن يسرد وفيات الأعيان ، كأن الدنيا وما فيها لا تهمه ، وكأن الاصلاح الاجتماعى لا حاجة بنا إليه …)

وإذا لبثنا على هذا (التقدم) فسيجىء فى معرض الكتب الآتى من يمر على (الأغانى لأبى الفرج فيقول : ما لهذا المؤلف لم يجد ما يكتب عنه إلا جمع أغانى الاسطوانات ، وطقاطيق الراقصات … كأن الدنيا … وكأن الاصلاح …

ويضحك أيضا …

ويبكى من هذا الضحك العلم والأدب والفن ؟

على الطنطاوى

طرنباذ فى نقل الأديب :

ذكر المحقق العلامة محمد إسعاف النشاشيبى فى نقله المتعة فى العدد ٦٧٨ من الرسالة الزاهرة أن محمداً بن مسروق البغدادى قال : خرجت ليلة فى أيام جهالتى وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به
إلا تعجبت ممن يشرب الماء

أقول إن هذا الخبر ينسب لأبى نواس فقد جاء فى الصفحة ٢٠٢ ، ٢٠٣ من أخبار أبى نواس لابن منظور «قال بعضهم صار إلى الحسن بن هانىء فى ليلة من الليالى وهو مرعوب فنزع ما كان عليه من الثياب وأخذ قميصا وسراويل وأراد أمراً يتأتى ، ثم تطهر ولبسها وما زال يصلى باقى ليلته إلى الصبح ، ثم أصبح صائماً فسألته عن السبب فى ذلك فقال : كنت منصرفاً من بعض المواخير ، فاجتزت من مقبرة فبينا أنا ماش فيها إذ أنشدت قول ذى الرمة :

بطيزناباذ كرم ما مررت به
إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فأجابنى مجيب من المقبرة أسمع صوته ولا أرى شخصه :

وفى جهنم ماء ما تجرعه
حلق فأبقى له فى الجوف أمعاء

وفى رواية الأستاذ النشاشيبى تصحيف ذهب بروعة البيتين وأفسد معناهما ، إذ قال « بطور سيناء » والصحيح بطيزناباذ[1] وقال فى البيت الثانى « خلق » والصحيح حلق .

هذا هو الصواب على رأينا فنرجو من الأستاذ أن يتحقق من ذلك .

وقد وجدت الأستاذ يهمز اسم أبى نواس كلما ذكر اسمه ، والصحيح أن اسمه لا يهمز فما هى علته فى ذلك .

(بغداد) **شكرى محمود أحمد**

توحيد القوانين فى البلاد العربية :

من أنباء دمشق أن اللجنة القانونية التى اجتمعت فى بلودان ثلاثة أيام برياسة الأستاذ عبد الرزاق السهورى باشا ، قد وافقت على القرارات التالية :

(١) طيزناباذ : موضع بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق على جادة الحاج ، وكان من أنزه المواضع محفوفاً بالكرم والشجر والحانات والمعاصر : وكان أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة.
« مسالك الأبصار »

الكتب

« كتب وشخصيات »

تأليف الأستاذ سيد قطب

للأستاذ أحمد فؤاد الأهواني

قال لى : الأستاذ سيد قطب سأهدى إليك كتابى الأخير « كتب وشخصيات » على أن تستبقى قراءته إلى ما بعد عودتك إلى القاهرة ، فلا ينبغى أن يشغلك عن الاستمتاع بهواء البحر القراءة والاطلاع . غير أنى خالفته فى نصيحته ، فقرأته وهو يزيد على ثلثمائة وخمسين صفحة .

ولم تكن هذه الصحبة شاقة أو مملة ، إذ أن فصول الكتاب منوعة حتى كأنك تتنقل من بستان إلى بستان أو من زهر إلى زهر . وليس غريباً أن نشبه الأدب بالأزاهير ، فهو حقاً زهر الفكر . تحدث عن وظيفة النقد وأصوله ، ثم انتقل إلى عالم الشعر ووقف عند العقاد الشاعر ، ثم رحل إلى عالم القصة والرواية فطرق أبواب القصاص والروائيين ، وحلل طرائقهم ، ونفذ إلى صفحات نفوسهم. طه حسين ، توفيق الحكيم ، المازنى ، عزيز أباظة ، خليل هنداوى ، نجيب محفوظ ، عادل كامل ، محمود تيمور ، يحى حقى ، السحار . ثم طاف بالنفس والعالم فتحدث عن البيادر لميخائيل نعيمة ، وأومن بالإنسان لخلاف ، وسندباد عصرى لحسين فوزى ، والعناصر النفسية فى سياسة العرب لشفيق جبرى .

وانتقل بعد ذلك إلى البحوث والدراسات ، فكتب عن عبد القادر حمزة وأنطون الجميل والزيات وعلى أدهم ، واختتم الكتاب بالكلام عن التراجم والتاريخ موازناً بين العقاد وهيكل وطه ، وبين المازنى وعبد الرحمن صدقى وعبد الحليم عباس ، وبين كرد على وطه الراوى .

فأنت ترى أن العنوان موافق لمضمون الكتاب : استعراض لكثير من الكتب ، وتحليل لشخصيات أصحابها .

والكتاب ظل لصاحبه ، وفيض لنفسه ، وهل يوجد كتاب بغير كاتب ؟ . وفى الحق إن شخصية الكاتب هى مفتاح الكتاب، وفهمها يبعث فى أوصاله الحياة ، والذين يتحدث عنهم الأستاذ

١ — وضع تشريع تجارى برى موحد فى نصوصه أو على الأقل فى مبادئه العامة ، والشروع فوراً فى توحيد أحكام الوثائق التجارية فى البلدان العربية

٢ — وضع مشروع قانون موحد للتجارة البرية والبحرية

٣ — إنشاء معهد للفقه الإسلامى ملحق بجامعة فؤاد الأول له كيان مستقل وميزانية خاصة ومجلس إدارة خاص يعمل على تخريج الباحثين فى الفقه الإسلامى وإصدار مجلة دورية

٤ — توحيد المصطلحات القانونية بين دول الجامعة والبدء بمصطلحات قانون العقوبات واصول المحاكمات القانونية والتجارية .

٥ — وضع قانون موحد لمكافحة المخدرات

وقد وافقت الهيئة العامة للجنة على مشروع القانون الموحد الخاص بحماية حقوق المؤلفين وستعرضه على الجامعة العربية لإبداء ملاحظاتها عليه .

فى أصول الكلمات :

قرأت ماجاد به قلم كاتبنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد تحت عنوان « أصول الكلمات » افتتاحية للعدد الـ ٦٧٧ من « الرسالة » الشهيرة فتوقفت عند قوله : « كذلك قال الأب أنستاس ، وقد عقب عليه الأستاذ روكسى بن زائد العزيزى معلم العربية بكلية تراسانته بالقدس فى مجلة الأديب البروتية فقال : « فلو قلنا إن العرب قالوا » عين القلب ثم نحتوا من الكلمتين كلمة واحدة — عقل — لما أبعدنا عن الصواب ، ولوسايرناما ذهبتم إليه وقلنا إن العقل من عق لكان مقبولا لأن العقه هى البرقة المستطيلة فى السماء ، وهل العقل إلا وميض النفس وعين القلب »؟

والذى أريد أن أقوله : إن الأستاذ الكبير خلط بين ردى على الأب مرمرجى الدومنيكى ، وتنبيهى إياه على تحريفه لأقوال الأب أنستاس مارى الكرملى المثبتة فى مجلة لغة العرب ، وأقوال الأب الكرملى نفسه .

روكسى بن زائد العزيزى

سيد قطب من الأحياء ، نعرفهم بأشخاصهم ونراهم ونتحدث إليهم ، ونسمع عنهم ، وأكبر الظن أنهم جميعاً من أصدقاء الأستاذ سيد قطب ، أو على الأقل اتصل ببعضهم صلة شخصية ، تيسر له النفاذ منهم إلى الأعماق . ودراسته لأشخاصهم أسبق من دراسته لكتبهم ، فكان الأولى أن يجمل العنوان « شخصيات وكتب » لولا رنين الإيقاع .

وكتاب الأستاذ سيد قطب محقق الفائدة ، لأنه يعرض رأيه في صدق وقوة ونفاذ . والأصح أن أقول إنه يعرض شعوره وإحساسه بدلا من رأيه ، لأن مسائل الأدب ، شعراً كانت أم قصصاً أم دراسات تحليلية ، إنما تدرك بالذوق والشعور لا بالمنطق والعقل ، ولو أن الفصل التام بين العقل والعاطفة مستحيل .

وهنا قد يختلف القارئ مع الأستاذ سيد قطب في أحكامه ، فيرجح كاتباً على كاتب ، أو يعجب بشاعر دون شاعر . وقد تتفق مع المؤلف في إعجابه ولكنك تجهل سبب الإعجاب ، فيقدم لك العلة والميزان . ومن الواضح أن سيد قطب يعجب بالأستاذ عباس العقاد ويقدمه على غيره من الكتاب في ميدان الشعر وميدان النثر على السواء . وسوف تعرف علة هذا الإعجاب عند ما تقرأ الكتاب .

وللأستاذ العقاد شعر جيد تذوقته عندما عرض بعضه سيد قطب . وتسألني لماذا لم تتذوق هذا الشعر من قبل ، فأقول إنني أرهب الشعر ، ولا أقدم على قراءته . ولقد يزيد عجبك إذا عرفت أنني كنت أقرض الشعر وأنا صبي صغير في الحادية عشرة من عمري ، حين كنت بالسنة الأولى بالمدارس الثانوية ، ثم غفر الله لمدرسي اللغة العربية الذين قتلوا في نفسي هذه الموهبة ، بل صرفوني حتى عن قراءته بما كانوا يختارونه لنا من شعر سقيم لا يحسنون الدخول إليه والاحتفال به . وأذكر أن الأستاذ الزيات ذهب هذا المذهب في كتابه « دفاع عن البلاغة » فأرجع بعد الناشئين عن الكتابة البليغة إلى المعلمين . ومن الإنصاف أن أذكر طه حسين بالخير في هذه المناسبة فقد حضرت عليه درساً في الأدب العربي بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ كان يشرح فيه معلقة النابغة الذبياني ، فكان الدرس الوحيد الذي دفعني إلى تغيير رأيي في الشعر العربي . ولكن عاماً واحداً لم يكن كافياً لتخلص لي ملكة ذوق الشعر ، فظللت حتى الآن منصرفاً عنه لا أحفظ إلا الأبيات القليلة ، ولا أستطيع الانقطاع إلى قصيدة بتمامها .

فمن الخير لشبابنا أن يقرأوا كتب النقد لتبصرهم بالجيد من الأدب الحديث حتى يسيروا على هدى وبصيرة فلا يضلوا الطريق

وليس في نقد الأستاذ سيد قطب للأدباء والشعراء والكتاب الذين تعرض لهم عنف أو قسوة أو اعتداء . بل على العكس من ذلك ، تحليل هادئ ، وتقدير صحيح ، وميزان أقرب إلى الاعتدال فيه تشجيع ورفق . وهذه هي وظيفة النقد ، لا ينبغي أن يقسو الناقد حتى يتهم بالتحيز والهوى ، أو يسرف في التحية ويغمض العين عن المساوئ والعيوب وكذلك لا يجب أن يغضب الكاتب إذا انتقدت آثاره ، لأنها أصبحت ملك الجمهور ، بل نقدها دليل على أنها شيء مذكور .

وهنا أحب أن أخالف الأستاذ سيد قطب في بعض أحكامه . ولن يكون هذا الخلاف في ميدان الشعر بطبيعة الحال لأني أجهله .

أخالفه مثلا في تقديره لقصة قنديل أم هاشم من قلم يحيى حقي ، ليست القصة تحت يدي الآن ، وقد قرأتها حين ظهورها في سلسلة اقرأ ، وأذكر أنها لم تعجبني ، ولا أزال أذكر الأسباب : منها أن الموضوع مطروق ، ومع ذلك فليس هذا سببا لضعف القصة إذا أحسن صاحبها تصويرها ، وقدم إليك السياق في جمال وإبداع يعوضك عن عمق الفكرة وأصالة الموضوع . والأفكار الخالدة هي تلك التي تكشف عن النواحي الإنسانية العامة الصالحة للحياة في كل زمان وفي كل بيئة . وليس في قنديل أم هاشم ذلك التحليل العميق للنفس البشرية ، حتى إذا نقلت القصة إلى لغة أجنبية نالت الإعجاب . ويبدو أن صداقة الأستاذ سيد قطب للمؤلف هي التي دفعته إلى تشجيعه ، ومن آيات هذه الصداقة أنه يقول عنه . أوه ! يحيى حقي ! أين كانت كل هذه هذه الغيبة الطويلة ؟ وفيم هذا الاختفاء العجيب .

نرجو أن يعود يحيى حقي إلى الميدان ، فالقصاص عندنا قليلون .

ونرجو أن يتابع الأستاذ سيد قطب نقداته فهو حقا من خيرة النقاد في مصر .

أحمد فؤاد الأهواني